

روايات وقصص من الخيال العلمي

Fiction

د. قصي الشيخ عسكر



روايات وقصص
من الخيال العلمي

د. قصي الشيخ عسكر

الكتاب : روايات وقصص من الخيال العلمي (خيال علمي)

المؤلف : د. قصي الشيخ عسكر

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٢١٦٣

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 013 - 3

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى-المقطم-القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٠٢)-٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف: محمود ناجيه

روايات وقصص من الخيال العلمي

Fiction

د. قصي الشيخ عسكر

رائد أدب الخيال العلمي في المهجر



مقدمة

قصص الخيال العلمي تحتاجُ إلى مُخيلةٍ مكتنزةٍ بالثقافــةِ الشــاملةِ، والاطلاع المعرفيِّ الواسع، والقدرةِ الفائقةِ في صــياغةِ الموضــوع المُتخيَل، وتقديمه على نحو مدهشٍ مثير وثابٍ، فضلاً عــن درايــةٍ خبيرةٍ في التقنيةِ المناسبة لبناء الحبكة، بوصفها بوتقــةَ الأحــداث المتواليةِ التي ترتبطُ فيما بينها، بأزمنتها المعيّنةِ لكي توْصلَ النتيجة التي يبشّرُ بها النصّ، سواءَ أكانت تلكَ النتيجة تبشّرُ بانتصار الخير، أم كانت تَعلنُ عن اندحاره، وهذه القصصُ التي كتبها "قصي عســكر" قد تمثلت فيها جميع تلك الضوابط والمواصفات التي ألمحنــا إليهــا، لاسيّما قصصه الطويلة التي ركّزتْ على تقنيةِ المناجاةِ النفســيّةِ، أو ما اصطلحَ عليه بــ"المونولوج الدراميّ" الذي كشف لنا عــن وعــي شخصيّات تلك القصص ولا وعيها وهي تحاور ذواتها باستغراق.

قصي عسكر مثقفٌ شاملٌ، فهو شاعرٌ مبدعٌ، وقاصٌ متمكّنٌ، وناقــدٌ حصيفٌ، لذلك شكّلتْ مؤهلاتُهُ المُكتسبةُ المتزايدةُ رافداً مُهمّاً في تكملة استعدادهِ الفطريِّ أو موهبتهِ في صناعةِ هذا المتخيَل السرديِّ الجميل.

د. عبد الرضا عليّ

ناقد وأكاديمي

آدم الجديد

- ١ -

لا يشك قط في كونه حقيقة موجودة!

على الرغم من كلّ ذلك فهو يُدرك تمامًا أنه واحد من هــؤلاء، أو إذا لجأ إلى أسوأ الاحتمالات فهو الشخص الأساسي بل الأقوى، وإن كان لا يجزم في أنّ الآخرين لهم القوة ذاتها والسطوع نفسه.

صباح الخير

جود مورننك

جود مون

شالوم شلومخا

بوينس دياس

تاوان تاوان

شوان.. خالد.. موشي.. بل.. أنا، هؤلاء.. هو.. هم.. أنا، قد يكون انفصامًا، كأنّ يديّ ليستا هما، قدماي أيضًا، لا يُنكر أنه حقيقة موجودة، بل شخص في أكثر من واحد، ولكن لِمَ هو؟ لاختلاط الأزمان، قد يكون هناك خطأ ما، "ماشهو لو بسيدير ليم" ممرضة فاتنة حسناء، تقف على رأسه، أمامها عربة لفطوره أو غذائه، وعلى بُعد منها بضع ممرضات يحيينه:

هلو آر يو

فينت

كوماستاس دي سالوت.

نى هاو ما

لم يعش في الصين، بل عاش فيها، ولم يزر الكاريبي، لكنه ولدَ هناك، شيء لا يطاق؛ يدرك ما يقولون، ويعرف نفسه ولا يدرك من هو، لكن الوقت يخادعه أيضًا، أنت موشي.. شمي موشي.. اسمي خالد، والعام هو ١٩٧٣، والدك يهودي يملك صحيفةَ البولتكن، الصحيفةَ الأوســـع انتشارًا في كوبنهاغن، كنت على متن دبابة ترسل التقارير الصحفيةَ ثمَّ حدث انفجار هائل، فكيف انتقلت إلى الصين ومظاهرات عام ١٩٨٦؟ هل العالم يعيش الآن عام ١٩٨٦ أم ١٩٧٣؟، وإلاّ كيف تكون كـــارلوس الذي أصابته نوبةَ قلب، تداخلات أم تناسخ أرواح حلّ بك أيّها الأميـــر العربيّ الفتى الهنديّ أيّ عام هو؟ أم أمك التي بان الانكسار على وجهها والقتامة في عيون إخوتك الأكبر سنًا منك.

فضيحة؟ نعم فضيحةَ، سوف تتحدث الجزيرة العربيةَ عن هرب أميرةَ مع عشيقها، من يستطيع أن يلحق بها ليقتلها، إن كنتم شجعانًا الحقوا بها في لندن أو واشنطن، إنها أختكم يا رجال وإلا فلن تكونوا رجـــالاً بعد اليوم!

لست تدري؛ بل كان الأمير غارقًا في هواجسه عنـــدما ســكتم أنـــتم، شوان، كارلوس موشي لم تكونوا معه أنت في عام ١٩٥٦ ذلك اليوم انتهت حياتك، مع أنك تعيش معه الآن في سنةَ واحدةَ مبهمةَ الملامح وجسد واحد، وعلى الرغم من أنك تُبصر يدين غير يديك؛ لكنك لمّـــا تبصر وجهك بعد، فتدرك أنك وقفت تهتف، تهتف بأقصى ما تستطيع أن تَرفع صوتك إليه، الحشود راحت تزدحم في ساحةَ بكين، انـــدفع

السيل الهائج ثمّ توالى الرصاص.. وسقطتُ وأنا أتحسس صدري بيديّ، أما أنت يا موشي، أو أنا أيضًا، فالعالم عندك ينتهي عام ١٩٧٣ حين أصابت قذيفة انطلقت من ضفة القناة دبابتك، فلم تعد تذكر أيّ شيء، وتوقفت الدنيا عندك في ذلك التاريخ، في حين كان الأمير خالد أو أنا، هو أيضًا يقود سيارته وذهنه مشغول عن كلّ شيء، لم يعد ينتبه للسرعة وحركة السير، وشخصيات الفضيحة تُكشر عن أنيابها أمامه.. في لحظة ما استشرت كالملاريا والطاعون ثمّ لبست ثوب شاحنة مجنونة، وحين وقع الحادث لم يكن يعرف الدكتور كارلوس الذي يظنه هو نفسه يتصور أن ما حدث له كان في عام ١٩٥٦، من العبث الحديث عن زمن محدد للخيانة سواء قبل ظهور خالد أم بعده، فها هم أخرون يظهرون، ومن الممكن أن نختلف، على الرغم من كونك واحدًا لا أكثر أو كثرة في واحد أنت تدّعيهم وهم يدّعونك ويدّعي كلُ منكم الآخر.

خالد الأمير.. فضيحة..

شوان.. تظاهرة.. بكين.. أزيز رصاص..

كارلوس المحاضرة كانت رائعة في جامعة بوينس أيرس.

إنه عام ١٩٥٦، نحن الآن على أقل تقدير في صيف الكاريبي الرائع، لا أبدًا عام ١٩٧٣، الحرب والسلام، كلا كلا؛ العالم يعيش الآن في سنة ١٩٨٦العام.. الأعوام؟ السنوات..

حرب فيتنام.. الأحراج.. الغابات.. جندي، أنا أقول إنها أضغاث أحلام لسنوات قد تكون مرّت أم لم تمرّ، ومن العبث المُطلق الحديث عن

زمن محدد للخيانة، في سنة ما هربت أخت ما مع عشيق، وفي سنة ما قبل ذلك التاريخ أو بعده تُصبح الأخت زوجة، أما المظاهر المحيطة، فتدل على أنه مشفى كبير، منذ فتح عينيه أو عيونهم وجد نفسه في هذا المكان، عربيّ أصيب بالهلوسة واختلاط السنوات، أو يهودي وربما أمريكي، وقد.. الممرضات يهتممن به فوق العادة، ويُدرك أنه دخل المشفى بلغة في حين يتكلم عدة لغات، وتتجسد في ذهنه أكثر من فكرة وصورة، الأمور تلتبس في رأسه - الرؤوس - بشكل غريب، يصعب عليه والحالة هذه أن يصدقه أو يصدقهم، صيغة جمع أم مفرد، هل فقد الذاكرة وصحا ليستعيد ذاكراتٍ أخرى؟.

وفق أسوأ الاحتمالات إنه بعد أن أصيب في حادث ما، عندما كان شخصًا ما، وتعرض لعلة غامضة في حال فقدانه الوعي، مرض يمكن أن يُسميه عدوى الشخصيات، قد يُصيب هذا المرض من يتعرضون إلى حالة جدّ قريبة من الموت فقط، فينجون ليصابوا بعدئذ بفيروس انتقلَ إليهم في حالة فقدان التوازن، من شخصيات أصيبت في ظروف غامضة، وشارفت الموت، ثمّ استطاعت بعض ملامح تلك الشخصيات أن تفر من النهاية المحتومة وحاجز الزمن، وتدخل في شخصيته الأساسية، حيث امتزج كلّ هؤلاء فيه، فلم يعد قادرًا على معرفة شخصيته الأولى!

هكذا كان يفكر.. يفكرون..

ولعلّ بعضهم سخر من هذه الخاطرة، لكنه مع ذلك يجب أن يبحث عن أي رجل كان هو من قَبْلَ قبلَ أن يتحقق فيه كل هؤلاء بسنواتهم المضطربة..

خالد أم كارلوس أم..

وقطع عليه هواجسه تلك دخول أكثر من ممرضة نطقن كلهن بلغات مختلفة، وخاطبنه بأسماء متباينة يشعرها كلها ويحس بها طلبن منه أن يتبعهن إلى مختبر البروفيسور" ج"، فنهض من مكانه للمرة الأولى، إذ كان قد مُنِعَ من مغادرة الغرفة لمجرد استعادته الوعي، وصوت في الباحة يكرر:

إلى الأمام

نعم حسنا كود.. بوينس فينت

فوروِرد وورد إلى الأمام..

رائع.. جميل فاين..

عيون الممثلات الجميلات يتمعنّ في مشيته وتوازنه، ثم عبرن به الممر إلى مبنى ذي شرفة زجاجية، فدخل بعدئذ المختبر، هناك كان بانتظاره البروفيسور "ج" وهو رجل في السبعين من عمره، لم يدرك رأسه الصلع لكنّ الشيب غزاه، بسط يده نحو كرسيّ أمام جهاز حساس، فجلس، وسأله من دون مقدمات:

- كيف تشعر الآن؟ تابعت عيناه الجهاز وأضاف، قل لي بماذا تشعر؟ فاندفع مباشرة من دون وازع:

- أريد أن أعرف من أنا وأين، وفي أية سنة أنا أم نحن؟

- حسنًا حسنًا افترض إنك في مشفى، نُقِلت إلى هنا لسبب ما، حادث أو غيره، افترض هذا، والأهم أن تقول لي كيف تشعر وبماذا تفكّر؟

- دكتور أنا أمير عربيّ اسمي خالد، على الرغم من أنّ يديّ وقدمي ليست هي وليست لأيّ من هؤلاء الذين أحسّ أنني هم، فهل تسمح لي أن أرى وجهي؟

- بكل سرور!

وضغط البروفيسور على موجه آليّ فانزاح عن الحائط ستار ارتسمت خلفه مرآة مستطيلة كبيرة الحجم، فنبّه البروفيسور مريضه بإشارة من يده:

- يمكنك أن ترى في المرآة خلفك.

نهض متجها صوب المرآة وبمجرد أن وقعت عيناه على الصورة أنكر الجميع، لم يكن وجه موشي ولا خالد ولا شوان ولا بلْ، إنه شخص آخر مختلف تمامًا، أطال بصره في الصورة ورجع إلى مكانه، وهو يتمتم:

- أبدًا أبدًا

فقال البروفيسور الذي وضع في حسبانه أيّ انفعال يمكن أن يراود مريضه:

- ليس المهم هذه الأمور، بل المهم عندي هو توازنك في المشي ووعيك، والآن يمكن أن تكمل ما بدأت به.

- قلت لك إني أمير عربي، اسمي خالد، خرجت من البيت غاضبًا، أعتقد أنه يوم خميس.

- أي عام؟

- ١٩٧٦

وأضاف البروفيسور:

- لأيّ سبب كان الخلاف؟

- أختي الأميرة؛ كأنّ الحادث جرى قبل لحظات، شرف العائلة، سمعة البيت، الفضيحة تسري كالطاعون، قد لا تدركها لأنك من مجتمع آخر ولا أقبلها في حالة كوني كارلوس، المهم إني كنت في غاية الغضب، خرجت من المنزل منفعلاً وركبت السيارة متجهًا إلى مكتب عملـــي، ويبدو أني تعرضتُ إلى حادث..

- فعلاً تعرضت إلى حادث!

- لكن ما يثير دهشتي كيف انتقلت إلى هنا"قال عبارته وهو يتطلـــع برجاء وتوسّل إلى عيني البروفيسور".

- ستعرف ذلك في الوقت المناسب.

- بغضّ النظر عن ذلك، وكوني أدرك تمامًا أننا الآن في العام ١٩٧٦، بعد هذا كله تأكدتُ أنّ العالم يعيش الآن ١٩٨٦، أنا طالـــب صـــيني شاركت في الاضطرابات الأخيرة، العام هو١٩٨٦ سقطت في معركة مع الشرطة هل تصدق ذلك؟

كان البروفيسور يهز رأسه دون أن يجيب في حـــين راح المـــريض يواصل:

- بالتأكيد إننا في عام ١٩٦٦ استدعيت للخدمة العسكرية في فيتنام، اسمع لهجتي الأمريكية، زد على ذلك إني أحبها، وصورتها مازالت في خيالي لولا أني أستاذ جامعي خانتني زوجتي.

- وماذا بعد؟

- سوف أغض النظر عن ذلك وأتحدث إليك عن نفسي، موشي بن، إعلامي، دنماركي مولود في كوبنهاغن، والدي يملك صحيفة البولتكن، في الصيف نعيش في كوبنهاغن والشتاء في إسرائيل، وحين شبت الحرب هذا العام في أكتوبر، أرسلتني الصحيفة مراسلاً لها على الجبهة المصرية، ولعلي لم أنم طويلاً بعد إصابتي قبل أن ينقضي العام لأجد معي آخرين في أزمان مختلفة آخرون، هم أنا في زمن لا استطيع أن أحدد هويته، مع أنه واضح المعالم.

وأكد البروفيسور:

- كلّ هذا صحيح، المهم توازنك العقلي وتوازنك في المشي!

- وماذا تفسرّ كل هؤلاء فيّ أنا الصيني أو..

فقاطعه البروفيسور:

- قبل أن تسمع مني أي تفسير ماذا تظنّ أنت؟

- ربّما حين قتلت في الصين أو بعد أن انتحرت في الأرجنتين أو قتلت في فيتنام..

- استخدم شخصك الوحيد وحدثني.

سأل مؤكداً:

- أي واحد؟

فأصرّ البروفيسور بقسمات جادة:

- أي واحد.

- بعد أن كنت أقود سيارتي تعرضت لحادث، وأظنّ أن هناك نقطة فقدان توازن فيها يمكن أن يصاب المشرف على الموت بمرض من عالم الموتى، وحين يرجع إلى الحياة بمعجزة طبيّة يكون قد تعرض لفيروسات غيبية التصقت بعقله من عالم الموتى الغريب، في هذه الحالة يصعب عليه أن يميز شخصيته الأصلية عن الشخصيات التي تداخلت فيها.

- في هذه الحالة تكون الشخصية الأصلية هي التي يحددها الزمن الأخير، أي أنك شوان المصاب في عام ١٩٨٦، وأصبت حين كنت في نقطة التوازن تلك بفيروسات ذهنية أساسية لموتى قضوا في سنوات مختلفة.

- هذا مجرّد افتراض!

- الأفضل بعد هذا اللقاء، أن تذهب إلى غرفتك وتكتب عنك بكونك مفردًا، انسى الأعوام التي أعقبت ١٩٧٦، وتجاهل الولايات المتحدة والأرجنتين والصين، عِشْ في منطقتك العربيّة، واكتب بإسهاب عن حياتك، ثمّ لنر فيما بعد.

- ٢ -

أذكر اليوم جيدًا، إنه ثاني يوم العيد..

هكذا بدأ عبارته، وعلى الرغم من وجود الآخرين الذين وقفوا عند حدود زمانية منتهية فيما قبل عام ١٩٧٦ أو بعده؛ إلاّ أنه كان يتذكر آخر لحظاته، بالكاد كاد ينفرد بنفسه، والآخرون ليسوا دخلاء على صفوه، لم يكونوا جحيمًا، بل هو أكثر من واحد يعيش في مناطق مختلفة وسنوات متباينة، والحق إنه ظلّ يقاوم ليتجاهل الآخرين الذين هم هو، كان كلما بدأ بواحد آخر وكتب بلغة ما، تمكن من إسكات أنفسه الأخرى، اللاتي تتخذ وظائف المراقبين أو المتفرجين، أما "بلّ" فقد سأل نفسه:

- لو رجعت إلى أمريكا بعد الشفاء واقترنت بها كم شخصًا ينظر إلينا حين أنفرد بها؟

- لكنك، لكني لست غريبًا عني.

أجاب خالد واستمر في الكتابة:

- قالت لي أمي إنّ أختي خرجت ولم تعد لحدّ الآن، كانت تحب رجلاً أجنبيًا رفضنا زواجها منه، ويبدو أنها غادرت البيت إلى منزل إحدى صديقاتها، اتصلنا عبر الهاتف بكل المعارف والأصدقاء من دون جدوى، في طريق العودة من المكتب قلتُ لنفسي يمكن أن أعرض على الأميرة فكرة السفر معي، وهناك أقنعها بالعدول عن رأيها، أنا الأخ الأصغر والأقرب إلى نفسية الأميرة من إخواني.

- مالك وشانها، هل يُعقل أني عشتُ في مجتمع كهذا في زمن قادم؟.

- أرجوك يا بلْ!

وَعَدتُ نفسي أن نبقى مراقبين فقط، فالدكتور طلب مني أنا خالد، أن أكتُبْ في البداية، أما أنا شوان وبل و.. البقية الذين أنا..، فيمكن..

وتوقف عن الحديث مع نفسه، وواصل:

- إخوتي طارق وموسى ورشاد، وأخواتي تحمسوا كثيرًا للمقتــرح، باتوا يلومون أنفسهم يوم وافقتْ العائلة على سفر الأميرة للخارج من أجل الدراسة.

- أنا أحببتها، أما قصة الخيانة فآخر ما توقعته منها، بل كارلو، لماذا أنت أمير عربي تعيش في غير زمنك، وزوجتك التي انتحرتْ من أجلها، تظاهرتْ أنها تُحبك أعمق من امتداد زُرقة الكاريبي، والأجدر بــك أن تضحك منها حين تتحدث معك باللغة الإنكليزية، لثغة محببة، فكيف يا تُرى أصبحتَ خالدًا تغار من هرب أختك، وتقفز إلى حرب أكتوبر، ثم تُحرض الناس يا شون في ساحة ببكين؟.

من حقي أنا أن أعترض لأهادن نفسي قليلاً حتى أستقر على وقــت معين واسم معين، لكنني عندما رجعت إلى البيت، أنا خالد ولست بلْ أو كارلو وغيره من هؤلاء الذين هم أنا، وجدتْ العائلة في هياج، حزن تام، أبي طريح الفراش، أخي الأكبر يزعق، لا تسخر مني يا موشي، في تلك اللحظة قبل الحادث؛ لم تكن أنت أنا، ولا أي واحد منكم أنا، أو أنا أنت، كنا متفرقين، قالت لي أمي بنغمة يائسة: "أختك الأميرة فعلتها"، قالتها وعيناها إلى الأرض، وإذ انفردت بي اكتشفتُ أنها ممثلة مــن

الدرجة الأولى، بانت الشماتة على قسماتها، حمدتْ الله على أنها لــم تُرزق ببنت، ولكدتْ وهي تَهمس لي خشية من أن يسمعها أحد: "مــا يخصنا نحن، للأميرة إخوة أشقاءٌ"، وقتها امتلأتْ حنقًا على أمي وغيظًا من سلوكها، العار سيلاحقني إلى الأبد، شخص كبير في الدولة اتصل بنا ليخبرنا أن جهاز الخارجية سيكثف اتصالاته في محاولة لإعــادة الأميرة.

- هل أنا مصاب بانفصام الشخصيّة؟

- لؤكد أني خالد.

- لنا موشي وأتكلم العبرية، كيف اقتحمتْ عليّ عوالمي، هــل هــو حادث الحرب؟

- لنا أقول لك، هناك فكرة غير نظريّة الفايروس، يمكن أن اســميها امتزاج عدة أرواح، حين يُصاب شخص ما في حادث مثــل حــادث الحافلة، وتنطلق روحه من جسده، يمكن أن تمتزج بأرواح فالتة في الأرض، قبل تحررها إلى الكون وانعتاقها من الجاذبية، لكــن حالــة المزيج تعود إلى الجسد بفضل معالجة طبيّة متقدمة، والدليل على ذلك أنّ هناك أشخاصًا ماتوا وأيقن الأطباء من موتهم، ثم عــادت إلــيهم الحياة، أما في حالتي فالظواهر تدلّ على أنّ امتزاجًا روحيًا عاد إلــى جسدي بعد غيوبة ما.

مهما يكن من أمر كل ما في ذهني من مشاريع وخطط وأفكار اضطربت، الحديد، الإسمنت المقاولات، معاصر الزيتون، معامل الصابون، مشاريع كثيرة ومشاكل واسعة صغرت واضمحلت أمام الحدث الجديد، أما أمي

فقد كانت تظهر الأسف لضرتها وإخوتي وتُبـدي شـماتتها أمـامي. المشكلة الأخيرة حاصرتني تمامًا، وقفتُ يائسًا، لا العقل أو الحكمة ولا المال، كنتُ في طريقي إلى المكتب، وذهني مشغول بالفضيحة الجديدة، غابت عن بالي السرعة وازدحام الطريق.

لا إنه انفصام بعد انفصام، لكن كيف تمكنتُ من أن أكتب بالعربية وأنا أتحدث الصينية فقط؟، لغتي الأولى العبرية والدنماركية، ثـم تعلمـتُ الإنكليزية وبعض العربية لِمَ أمُرْ بمثل هذا؟ قد يكـون حلمًـا أشـبه بالكابوس، غاية ما أذكره أني تقدمت وجهًا لوجه أمام شاحنة ضخمة.. آخر لحظة.. اصطدام قويّ.. ثم لم أعد أدري ما حدث بعد.

حين فتحت عيني عرفت أني في إحدى المستشفيات، أبصرتُ يـديَّ فوجدتهما غير اليدين، بل لم يكن هو طولي الذي افتخرتُ بـه أمـام ديزي صديقتي الرائعة، ١٨٥ طول مفرط، لستُ وحدي، أما وجهـي فقد عثرتُ عليه فيما بعد بشكل آخر، لستُ واحدًا، أنا عدةُ أشخاص، افترضتُ نظرية ثم دلتني حالتي إلى افتراض آخر، أحـس أنّ خالـدًا أقرب إليّ قليلاً من الآخرين الذين هم أنا، لكني لا أستطيع أن أنسـب نفسي لواحد، كلي هُمْ أو أنا كلهم، معادلةٌ صعبةٌ لا يمكن لن أفسرها بظاهرة سطحية مثل انفصام الشخصية، فأنا في أكثر من حالةٍ ومقتنع بكل حالةٍ أنّ أيًا من هؤلاء لا يغيب عني لحظةً واحدةً..

فأنا خالد الأمير العربي، وأنا الصيني، وبلْ الجندي الأمريكي، وكارلو الأستاذ الجامعي الذي تشرّب بحبّ اللغة الأسبانية ويضحك من زوجته

حين تتحدث الأمريكية، وانتحرتْ من أجلها عام ١٩٥٦، وموشي هل يعقل لن أكون عدويّ التقليدي حين أكون خالدًا وحدي، أعــرف كـلّ هؤلاء، فهم أنا، وأراهن على وقائع حدثت لي في هذا العالم، وقــائع امتدت على بقعة واسعة ضمت الصين وفيتنــام والجزيــرة العربيــة والولايات المتحدة وإسرائيل، ووقفت عند أزمنة متناهية الدقة.

فهل يعقل أني كلّ هؤلاء.

ياله من حادث غريب!

- ٢ -

حين فرغ البروفيسور "ج" من قراءة التقرير الأول والتمعن فيه لأكثر من مرّة، رفع سماعة الهاتف ليتصل بالسيدة "ديــزي"، تحــدث معهــا طويلاً بشأن الفتى "بل" الذي قُتِلَ في الحرب الأمريكيّة الفيتناميّة العام ١٩٦٦، وكانت السيدة "ديزي" قد حصلت من قبل على معلومات مقتضبة من البروفيسور، الذي أرجعتها محاولته إلى مرحلة الشباب، إنّها الآن في الخمسين من عمرها، يوم أحبته كانت في الثامنة عشرة، التقيا في نيويورك، أول رجل في حياتها، أحبّ كل منهما الآخر فيما يشبه لفحة العشق القاتلة، في إحدى الحافلات التقت عيناهما، لمحــة خاطفــة، وطول يبعث الهيبة في النفس، بعد موقفين غادرت الحافلــة، لتجــده يقتفي أثرها، أدركت أن فيه ميلاً للمغامرة، الخصلة الرائعة التي تحبها في الرجل.

يقول خالد إنّ الأمريكيات سهلات، أمّا الصــيني فيفضــل الصــمت، وبمرور الأيام اتسعت العاطفة بينهما، النظرة الأولــى فــي الحافلــة تحولت إلى أوار حام من الشوق، لم تحب قبله، ولم تحب بعده، سألت نفسها كثيرًا لماذا تختفي الأشياء العظيمة بصورة مفاجئة، وليلة التقيا قبل أن يفارقها بأشهر كان وحده، بداية العام ١٩٦٦ قبــل التحاقــه بالجيش في فيتنام، وربما يعيش هو شولن وبل وخالد وموشي وكارل

اللحظات ذاتها معها، لقد أخبرت زوجها فيما بعد بعلاقتها الســابقة، قالت هذه هي سُنّة الحياة، وناموس الكون الذي يجب أن يسير!

وهكذا تزوّجت!

كأنّ ما حدث كان بالأمس فقط، منذ يوم أو يومين أو على أكثر احتمال شهر أو سنة مدّة الغيبوبة عن الوعي، لا شيء في المشفى يشير إلى التاريخ ما عدا الأرقام والسنوات في رأسه، حياته انتهت عام ١٩٥٦ هذا فيما إذا كان كارل، وعام ١٩٨٦ إذا كان هو شوان، البروفيسور أعدّ له مفاجأة، استقبله هذه المرة في مكان معروف هو غرفة الفحص الخاصة في زمن مجهول، بصفته بلْ الأمريكي.

الآن أنا أعي كلّ التواريخ الخصوصيات المتعلقة بي، ومنها علاقتــي الجسدية والروحية بصديقتي ديزي، ولكي يؤكد ذلك يستشهد بالتواريخ، في ١٠مايو ١٩٦٦استُدعيَ إلى الخدمة، الحادث وقع يوم ١٩يوليــو ١٩٦٦، تخميناته - وفق ملاحظته لشكل يديه وأخيرًا وجهه، والتغيير الذي حدث لطوله بصفته بلْ وليس اسمًا آخر، كما يرغب البروفيسور أو يرغب هو والآخرون – تلك التخمينات تدلّ على أنّه دخل غيبوبــة مدة عام، وهناك إشارات يقولها هو كونه شوان، إنّه في عام ١٩٨٦، إذن يقظته لم تكن عام ١٩٦٧، حسنًا فهل يمكنه أن يضحك هو بلْ، ويبكي هو موشي أو خالد، في الوقت نفسه كيف يصبح شــكل فمــه ليستقبل موجة نكبة ونكتة متزامنتين، والأخطر من كلّ ذلك لو حاول كارلو الانتحار.. وها هو البرفيسور يقول له إنّ هناك ســيدة تطلبــه على الهاتف، فيتهادى إلى أذنيه صوت أليف غريب سمعه ولم يسمعه

من قبل فيه خشونة ما، للبروفيسور أمرَهُ أن يتجاهل الآخرين الـذين هم هو، فيدرك من هذا كله أنه يريد أن يختبره بكل أسمائه، ليكتشف ربما أحبها إليه ويلغي من نفسه نواته الأخرى، فهتف منبهرًا:

- ديزي! أنت أخيرًا ديزي!

لكن مالصوتها اخشوشن! لقد تذكر جيدًا آخر يوم التقاها، يأس قاتـل انبثق من عينيه، وأمل ضعيف ارتسم على شفتيه، فأبصر المسافات وحدها تمتدّ أمامه:

- هل تنتظرينني؟

فردت وهي تلصق خدها بشفتيه:

- أنت قدري.

آخر كلمة قالتها لك يا موشي لو بل لو كارل خالـد، ويـدها تلـوح والدموع تغزو عينيها، وكان يقطع المسافة من نيويورك إلى فيتنـام ليلقى قدره حيث يسطع الموت مختفيًا بين الأحراج الهائلـة، زمـن واضح في عالم غامض، أصوات هائلة.. دويّ مرعب ثم لم يعد يرى شيئًا حتى استفاق في هذه المشفى:

- هل تتأخر ديزي؟

- إنها هنا، ستراها بعد لحظات.

غادر البرفيسور الغرفة من باب جانبيّ، وانفرج الباب الرئيس لتطـلّ منه ديزي:

- هل تذكر حبيبتك؟

اعتدل في جلسته فاغرًا فاه، هي وليست هي، مثله تمامًا، ولأنها عرفت كلّ أخباره من البروفيسور؛ فقد ظلت متماسكة تهم حبس دموعها التي أوشكت على الترقرق في عينيها، لكل ذلك سبقته في الكلام:

- أولَ حبَ تتذكرني؟

هم أن يحتضنها، فتراجع، وتمتم:

- شيء لا يصدق!

- أجل.

- هل يمكن ذلك؟

فردت ومازالت عيناها تتمعنان فيه:

- كل شيء أصبح معقولاً في هذا الزمان!

ويبدو أنه استوعب الصدمة:

- كانت هي!

- نعم أنا هي.

سألغي النظرية التي ابتكرتها أنا موشي الخاصة بفيروس الأرواح، والتي ابتكرتها كوني خالدًا حول اندماج الأرواح، وأفترض أنّ العالم تعرض إلى ضربة عامة مجهولة جعلتني رجالاً مختلفين، وغيّرت شكلك، هذا إذا لم أكن دخلت في غيبوبة طويلة، هكذا يُخيّل إليك، ليست غيبوبة أو تناسخًا ولا دمجًا، العام ١٩٨٦ يفرض نفسه، هكذا يخيّل إلي؟.

- في أيّ عام نحن؟

لاذتْ بالصمت وفق تعليمات البروفيسور، الذي طلب منها الكف عن الخوض في كثير من التفصيلات، خاصةً في أثناء اللقاء الأول:

- لنفترض أن جسدي تغير بسبب إصابات بالغة فلمَ تغيرتِ أنتِ؟

قالت باشفاق:

- ستعرف كل شيء فيما بعد.

كان كارل يتمتم:

- قد يكون خيالاً، إنه عام ١٩٥٦.

وعلى الرغم من أنه بدأ يرضخ لواقع عبثي يعيشه مع نفسه والزمن، إلا أنّ الشك عذبه كثيرًا، فعقب على كلامها:

- حقائق غامضة أقرب إلى المحال.

- حسنا من أنا؟

- بلْ حبيبي!

- لكن قد أتحرك أنا بلْ وأجرب عملاً طائشًا على الرغم من كوني بلْ أو كارل!

- ألم تحبني؟.

- نعم!

- إذًا عشت الحقائق وأدركتها، ومنها أنا.

- لكنك كنت بغير صورةٍ وكنت أنا واحدًا وبشكل آخر، فهل يمكنك أن تفهمي اللغة الصينيةَ والعبرية والعربيةَ فضلاً عن الأسبانيةَ، بكم لغة أحدثك، أم بأيّة نفس أحبك، ثم ماذا عني أنا في الصين، وهناك حرب

في فيتنام، ولمَ أحزن إذا هربت أختي الأميرة لو أهم بالانتحار حين تخونني زوجتي؟

- مع ذلك فهناك أشياء خاصة أستطيع أن أذكرك بها، الشوارع التي مشيناها والحدائق التي زرناها، المقهى المفضل، أول همسة قلتها لي، الفراش..

فقال مقاطعًا وهو يقترب منها:

- يبدو أنها جرت لواحد مني فأصبحتْ مشتركة، ولا تشملني كلي في أكثر من زمن، أتفهمينني؟

هزت رأسها تؤكد كلامه ثم صمتْ وصمتتْ، وكانت لحظة الصمت حافزًا له أن يقترب منها ويضمها إلى صدره، الزمن قريب وبعيد، وهي كأنها هي أو هم كأنه هو.. ثم انتفض مبتعدًا وارتدّ وهو يطرق إلى الأرض خجلاً من نفوسه:

- لا كلا.

- أتشعر بشيء؟

- لستُ وحدي!

عندئذ رجع إلى سريره كأنه يهرب من أنفسه كلها، وكان عليها أن تتركه فهي تعي كلّ ظروفه، الوقت كما تظن كفيل بإصلاح كلّ شيء كي يعتاد الظروف الجديدة، فوعدته بزيارة أخرى، وانسحبت من الغرفة، وقد بقي صامتًا يتأمل زيارتها ويحاور أشخاصًا كثيرين.

- ٤ -

لم يعرف نتيجة حرب أكتوبر رمضان بعد.

عن نفسه يقول لذواته المجتمعين فيه إنه الوريث الوحيد لأبويه، مولود في كوبنهاغن، وحياته توزعت بين شتاء دافيء وصيف رائع، الشتاء في فيلا في تل أبيب، وعند الصيف تعود العائلة إلى كوبنهاغن، خالد والآخرون حين يتحدث كلٌ باسمه يفهمني جيدًا على الرغم من الخلافات الكثيرة، ويوم تحدثْتُ بصفتي خالدًا كنتُ هادئا ومتوترًا، أقبله كونه أنا الغريب عنه ويقبلني حين ندرك أنا جميعًا نمثل غيابًا وحضورًا في الوقت نفسه، نتكلم نحن الأنا بلغات مختلفة، فيفهم الآخر الآخر، لكن من هو الآخر، فجأة أفتح عينيَ فأجد الحدود الفاصلة التي رسمتها التوراة انهارت فجأة واختلطت مثل الزمن، المختون تداخل بالأغلف، والسامي بالهندي الأحمر، والأوربي بالصيني والعربي، جينات عبرية تطاولت على الزمن، ولغة قاومت قرون الشتات، ثمّ أنا الآخر خالد أيعقل ألا أمثل عدوًا لي..

كلّ ما أعرفه أنّ الصين لم تُقمْ علاقات دبلوماسية مع إسرائيل إلى هذه الساعة، مصر أقامت علاقات وهي دولة عربية، لكني أعرف أني أصبت في عام ١٩٧٣، هل أنا أهذي بسنين تسبق سنة انتحاري، أنا أؤكد لي أنّ اضطرابات عام ١٩٨٦ كانت هي الأسوأ، هل استطيع أن ابتعد قليلاً؟

مارست وظيفتي الصحفية حالما اندلعت الحرب، كنتُ علـــى الجبهـــة المصريّة، صعدتُ على ظهر دبابة في رتل متقدّم، في ذلك الوقت وقبل أن انشطر إلى مختلف آخر أكثر مني، اجتمعتُ في حالتان عظيمتان القوة المتمثلة بالنبيّ داوود والسحر الرائع الممنوح من يهوه إلى موسى، عبري فقط كما رسمتني التوراة، أنقل أحداثا وأصور وقـــائع أشـــبه بالملاحم الواردة في العهد القديم، لقد شُغلتُ بالتصوير عن كلّ شيء، لتكن تقاريري توراة جديدة موثقة بالصور، فجأة اهتزت الأرض قريبًا منّي، أنا موشي لستُ خالدًا أو كارل، لم أكن أيّ أحد منّي الآن في هذا الزمن المبهم، الآن أعرف أنني خالد أو كارل، بالتأكيد بلْ.. شوان هذا لا يهم مادمت أنا نحن، العربية الأسبانية هذا لا يهم الختان أو غيـــره، لم نعد نتعارك نحن خالد موشي لم يكن بلْ صديقي أنا هو، لكن مـــا يفرقني هو عامل الزمن، في أيّة سنة نحن؟، نحن أنا محصورون بين عام ١٩٥٦ والعام ١٩٨٦، إذا افترضتُ زمنا أوسع بين سنة ميلادي أنا كارلو وموشي أنا شوان، غير أني حين أستل نفسي من هؤلاء الأنا واكتب بالعربية أعي ميلادي ووفاتي، احملوه.. انقلوه بعيدًا، ثمّ غبت عن الوعي لأفتح عينيّ فأجد نفسي نحن، وجسدي طرأ عليه التغيير، تغيّر ذلك الشخص الذي رسمت ملامحه التوراة، كم قضيتُ هنا لأحول من فرد إلى فرد آخر، شهر سنة؛ كيف انتهت الحرب؟ أنا أهذي وأقول نحن العرب نجحنا وعبرنا، لابد أن أسجل مداخلتي أنا خالد، وأعـــود إلي أنا موشي.. كم دامت غيبوبتي التي حولتني من عبري فقط إلـــى

عبري وعربي، اثنان ضمن مجموع مفرد لا يستطيع أيّ منهما جرح الآخر فضلاً عن النزاع والخلاف في الكلام:

- ما يشغلني الآن الفضيحة.

- بي رغبة لاحتساء قدح شاي مع قطعة شوكولاته.

- أنا متأكد من ذلك، اليوم هو ١٩٥٦/٨/٥، عيد ميلادي الخمسين، هو ذاته اليوم الذي اخترته للانتحار.

- أنا بلْ هل دخلت في عالم الوهم؟

- حسنًا مادمت أنا خالد فيمكن أن اختلف مع نفسي موشي في كل شيء، إلاّ الختان ولحم الخنزير.

- المهم أنا مقتنع بذلك ومسألة الختان ولحم الخنزير لا تهمني مثلما تجد رأس خروف في تل أبيب أو في أي محل جزارة عربي، فيمكن أن تقع عينيك على رأس خنزير معلقًا على واجهة محل جزار في بوينس أيرس، نحن الأنا لم أعد أفكر بمشاكل العالم الكثيرة التي تؤدي إلى الدمار.

كان كارلو ذو الأصل الهندي الأحمر يتجاهل في هذه اللحظه أصواته الأخرى، ويبدو أنّه مهتم بعيد ميلاده الذي لم يبدأه، لكنه أنهاه بنفسه قبل أن يحتفل به، راودته فكرة الاحتفاء به في المشفى على الرغم من احتجاجه الآخر، ادعى أنه يجهل الآخر، وهو كونه أستاذ فلسفة لا يمكن أن يطلق عليهم الآخرين، ما داموا يجتمعون معه في رأس وجسد واحد، هم الذين هو ذاته محقون، ولا يمكن أن يعد حديثهم هلوسة، مادام صادرًا من رأسه، كان يمارس فكرًا نظريًا بحثًا في

الجامعة، وهو الآن الذي هم في تجربة عملية، ليعي بعد أن النظرية جعلته ينشغل عن زوجته أقرب الناس إليه، إلكترا التلميذة الجامعية المنحدرة من أصول يونانية خانته، وفي ما يشبه المهزلة أو العدوى يجد نفسه بعد انهيار ومحاولة انتحار؛ عربيًا يعيش في الصحراء، تلاحقه كما رائحة البترول فضيحة أخته، فيختار الموت في الأرجنتين يوم ١٩٥٦/٨/٥.

ويُقتل مرة وهو الأمريكي في فيتنام، في زمن مفاجيء، أو تُطلق عليه رصاصة في بكين، الأميرة نسمة أو إلكترا هي السبب، مهما يكن فهي طالبة في السنة الرابعة، أعجبتْ به وهي في السنة الثانية، إعجاب وحبّ، ومثلما اجتمع بآخرين هم هو؛ اجتمعت الخيانة والحبّ، خلال حفلة عيد ميلادها الذي يسبق ميلاده بشهر، لفتَ نظره سلوكها المريب، كانت تؤثر أحد الطلاب وتعيره اهتمامًا أكثر من زملائها الآخرين، باديء الأمر غضّ النظر، وتحوّل استفهامه إلى تعجّب، ثمّ تأكد من هواجسه، موضع حرج، خيّل إليه أنّه أصبح محلّ هزء:

- اقتلها.
- ما هذا؟
- الطلاق أفضل.

ديزي قالت انتظرك وقد انتظرتني لكنها تغيّرتْ مثلما تغيرتْ، بدت عجوزًا وهذا يثبت أنّ هناك أمرًا أكثر أهمية من مشاكل العالم الكثيرة، أنا أغرق في النوم.

هزء سخرية.. خالد وحده فيك بدا متحمسًا، لكنه قبل يوم عيد ميلاده وقف أمام الطلاب يلقي محاضرة، شعور غريب، راوده إحساس بالتعب والإرهاق، عيناه التقت بعينيها، وحامت في عيون الطلاب، ستة عيون، عشرات العيون تتطلع فيه متهم، أم بريء، خالد أم بلْ، وموشـــي.. ١٩٥٦، أم ١٩٧٣، الدنيا اصفرت في عينيه تهدّج صوته ثمّ.. لم يعد يشعر بشيء قط، إغماء.. إرهاق لم يمت بعد، ولديه رغبة فـــي أن يحتفل مع شخوصه بعيد ميلاده هنا في المشفى، قال لها إنه متعـــب ولن يذهب إلى أي مكان آخر، سيحتفلان وحدهما، وافقت وهي تداريه بابتسامة واسعة، وفي الموعد المحدد انتصبت الكعكة وتهادت علـــى أجنحة الأضواء الخافتة موسيقى هادئة:

كلّ عام وأنت بخير

هبي برث دي تو يو

كود فسلس دي

بوينس دياس بوينس تارد

هكذا نستقبل يومنا ونودّعه، بأية صيغة، أيستا لويغو، هل أودّعهـــا، يدي على السكين تتجه نحو كعكة عيد الميلاد انظر في عينيها، اسأل كأبله:

- هل تحبينني؟

أتجاهل سخريتي كوني خالدًا أو شولن قد لا أضحك في هذا المشهد، تطبع قبلة على خدي، ويدي في الهواء، السكين ترتفع في الهواء:

- إلى اللقاء.. أستا لويغو.. سي يو..

أووه يدي في الهواء، سأشرب نخب ميلادي حتــى أسـكر، عينـاي تلتقيان بعينيها طويلاً، وفجأة بلغة ما غير مفهومة أمر ايعاز واضح، لا أعرف بأية لغة هو، تستدير يدي تتركها تظلّ عيناي تحدقان بعينيها وتتحرك يدي قابضة على السكين نحو صدري!!!

هل أحتفل بعيد ميلادي؟

- ٥ -

- موشي.. بِلْ.. كارل.. خالد ناموا

حين دخل البروفيسور الغرفة الخاصة بالمريض هبت بوجهه احتجاجات واختلطت أصوات ولغات، كلّ واحد من هذا الواحد الشاخص أمامه على السرير، يحاول أن يثقب الزمن ليعرف حقيقة الوقت الذي وُلد فيه أو وقت حدث عظيم جعله يفقد الوعي، كان كل واحد منهم متأكدًا من فطنته، أما وجوده الحالي فيفسره بأنه محاولة من الطب تغلبت على الموت، لكنّ هذا الواحد المتعدد في أكثر من زمان ومكان بدأ صبره ينفد، وعندما أحسّ البروفيسور بإمكان حدوث فوضى لجأ إلى التنويم المغناطيسي، وأوحى بعبقريته في ذلك العلم إلى الثلاثة بالنوم لينفرد بشوان الصيني وهو آخر من هذا الواحد الجمع الذي لمّا يكتب مذكّراته بعد:

- هل نحن وحدنا ياشوان؟

يتطلع إليه بعينين سكنتا عند مجال مغناطيسي فبدتا أشبه بالمتجمدتين:

- أشعر كما لو أنني نائم صاح.

- أنت الثلاثة نائم، وأنت شوان الواحد صاح.

بدأ الصينيّ يتحدّث والبروفيسور يتابع كلماته على لوحة الكمبيوتر، فلم يكتف بالسمع وحده الذي لم يتحدد بلغة واحدة:

- أمي ربة بيت، أبي عامل مصنع، لم أعرف الخارج قط، صينيّ معزول عن العالم، ما معي ما أكونه من التعددية يمكن أن يكون عن

العزلة التي عشتها، أكثر الشعوب نفوسًا قوة عظمى، بلـد رائـع.. صيني، إلاّ إننا معزولون عن العالم، أنا خالد النائم وبل ظهرت أخيرًا، أنا نائم لكنني أسمعني، وأرى حلمي من ذاتي الأخرى، لا كتب مـن الخارج، لا جرائد، لا مجلات، لا إذاعات، لا ملابس، إزاء هذا الوضع تمردت، فسقطت.. ثمّ فتحت عينيّ لأجدني صاحيًا ونائمًا في الوقـت نفسه، شوان هو وآخرون، وزمن أعرفه أنا شـوان ١٩٨٨، وآخـر أعرفه أيضًا وأجهله أنا كارل، كيف عشت عام ١٩٨٨، ومت سـنة ١٩٧٣؟! أختي تنهزم مع عشيق، زوجتي تخونني مع عشيق، أنتحر في سنة، أُقتل في عام آخر، أتعرض لحادث سيارة، ورصاصـة فـي ساحة بكين المركزية تثقب قلبي، من أنا؟ أين؟ متى؟ إمّا أن تكـون روح شريرة حلت بي، فحولتني إلى أكثر من شخص، أنا كونفوشـي أؤمن بتناسخ الأرواح، وربما أكون جننت بسبب إصابتي.

- هل تشعر بشعور آخر؟

- غير الخدر الذي مبعثه أنا الآخرون، أراني أحلم أنا النائم، أتعثـر في نومي على الرمال، حبيبتي ديزي بدت في ثوب شـفاف، بـدأت تتعرى، أرى جسدها البض، أحراج كثة تحيطني، جمل يعترض طريق سيارتي، الشارع اختفى تحت موجة الرمال، جمل أحمر اللون يهاجم السيارة، دكتور هل يشن المعسكر الشيوعي الحرب علـى الولايـات المتحدة بعد هزيمة النازية، نحن في قارتي أمريكا بعيـدون، تسـأل هيلانة، لا تظني كذلك، فاندلاع نار ما في أي منزل بعيدة عن منزلك يمكن أن تنتقل إليك، بروفيسور أنا صاح وأحلم.

في هذه اللحظة تحولت عينا البروفيسور عن جهاز الكمبيوتر، وهتف بصوت دافيء طويل النبرة شأنه كلما استخدم حال التنويم المغناطيسي:

- شوان غد إلى النوم، نم.. شوان نم، ادخل في سُبات عميق، أنـت متعب تحتاج إلى النوم.

وتحول بعد لحظات إلى عيني الجسد الممدد على السرير أمامه:

- خالد أنت نائم وها نحن وحدنا.

- أنا لكن.. ماذا عني نحن النائمين؟

- ألديك رغبة في أن تقابل أختك؟

- العاهرة! بالتأكيد

- ماذا تفعل؟

- سأقتلها!

وحالما أتم عبارته، همس البروفيسور بأذن الجسد بصوت أكثر خشونة:

- خالد خالد استيقظ خالد استيقظ!

فتململ الجسد قليلاً وانزاحت العينان تحت وابل من التيارات والدوائر المغناطيسية، التي تراقصت ذبذباتها على إحدى شاشات الكمبيوتر:

- أنت صحوت.

- مازلت في حلم أشبه بالكابوس، أحراج ورمال.. وجـامعتي فـي الأرجنتين..

- بعد غد ستزورك أختك.

- ماذا الأميرة بسمة؟

- نعم، وبودّي أن اسألك ماذا تفعل لها؟

- لا شيء سأعاتبها فقط.

وتشنجت عيناه كأنه يفكر بشيء ما، بخاطر أقرب إلـــى الكـــابوس، فتفرس فيه البروفيسور وأدرك أن هناك فكرة في ذهنـــه استعصــت على أن يترجمها العقل الإلكترونيّ في الكمبيوتر:

- ماذا لو أحببتها أنا خالد أو موشي؟ مرّ بي خاطر شهواني كوني كارل؟

يهزّ البروفيسور رأسه متأملاً، ويظل يحملق بعينيّ الجســد، ويعــود صوته إلى رقته:

- خالد نم، خالد أنت بحاجة إلى النوم.

بعد ذلك انتقل إلى إحدى الأذنين وغيّر نغمة صوته:

- كارل هل أنت صاح وحدك.

- أؤكد لك أني صحوت وبقيت أنا خالد وموشي وبل نائمًا

- حسنًا

وقبل أن يُكمل البروفيسور:

- أريد أن أعرف هل أدركت سرّ الكابوس هذا أم ماذا؟

- قبل أن أجيب أودّ أن أخبرك هل تودّ أن تلتقي هيلانة؟

- شيء عاديّ

- أيسرك ذلك؟

- الحقيقة لا يسرني أو يفرحني.

مع الجملة الأخيرة استدار دورة كاملة وتابع شاشة كبيرة فـــأدرك أن بلْ استيقظ فجأة، فهتف بصوت عال:

- ستزورك ديزي أيضًا.

وكانت نبرته تزداد ارتفاعا مع كلّ كلمةَ يقولها:

- موشي.. فرانس.. شوان.. استيقظ استيقظ..

فتحرك مع صوته الشخص الجالس، تمطى أكثر من مرّة، في هــذه الأثناء غادر البروفيسور " ج" الغرفةَ ليتابع من مكتبه نتيجةَ اختباره الأخير لهذا اليوم.

- ٦ -

في زاوية الغرفة عن شمال السرير اجتمع حول الكعكة، كان كارل يود لو احتفل بمكان آخر، وظروف مختلفة، ربما لو احتفل وحده من دون هو الآخرين فيه، وإن كانوا قد أدركوا خاطرته المفردة حالما لمعت في ذهنه، كلنا طيبون مسالمون وإن فكرت في اللحظة نفسها ببعض العنف، من الصعب عليك حين تكون أكثر من واحد أن تجوع في وقت محدد أو تتكلم في اللحظة ذاتها، العربية تتنافس مع العبرية والصينية والأسبانية والانكليزية، كيف يسعني فم واحد وبطن واحدة؟ شوان لا يأكل لحماً أنا كونفشيوسي أتقزز من الحيوان مؤمن بالبوذية، وأحلم بأكثر من لغة، بودي أن أقول للبروفيسور مهما تعلم الفرد لغة أخرى وأجادها فإنّ أحلامه تأتي بلغته الأم، والبارحة سطع حلم في ذاكرتي بمزيج من لغات وأمكنة، ربما البروفيسور يجهل سر مرضـي، وإن أنكرت أني نجتمع عند الكعكة، فكيف أنكر كل الذكريات التي دونتهـا للبروفيسور:

سأقتلها.

أحتقرها

هل حقا تأتي نسمة؟

أنا قُتلتُ في حادث سيارة بسببها عام ١٩٧٦، وبغير سـببها عـام ١٩٧٣، وعام ١٩٨٦ أصابتني إطلاقة، ثم انتحرت عام ١٩٥٦ ولـم

تتوفر لي الفرصة لن أحتفل بعيد ميلادي نلك الوقت إلا في هذا الزمان والمكان المبهمين.

إنك تهذي أنا في عام ١٩٥٦.

يجب أن أنام مبكرًا ففي بكين لا أدع الوقت يسرقني.

تقتلها هذا مفهوم متخلف.

هاها.. من الغريب حقا لن أستفيق من إصابتي فأجد ديزي عجوزًا.

بلْ أنت كارل ماذا أقول ورأيت هيلانة الآن وفق حساباتي حين أتحقق أني شوان كم عمرها الآن.

حسنا هذا يمكن أن يحدث لي وفق بعض المذاهب في الهند والصين.

حسنا أفترض أني لست موشي بل أنت شوان، لنختلف معي في كـلّ شيء ونتفق على عيد الميلاد.

خالد يقاطع: العالم كله مفاجأة

كم يموت يوميًا وكم يحيًا؟

صحيح نلك مثلما فتحت عيني وجدت نفسي بأكثر من واحد وأكثر من لغة وديزي حضرت إليّ عجوزًا فيمكن أن أفتح عيني غـدًا لأراهـا شابة.

مع نلك لا أودُّ العودة إلى الصين.

تهدأ الأصوات لحظة، صمت مطبق، شوان يستعيد ذكرى التظـاهرة الدموية حيث تُشوش تداعياته على خاطر بلْ الذي كان يصوب النار على الأحراج، وخالد يغتنمها فرصة ليطعن صدر نسمة بخنجر، أمـا كارل فقد سطع في ذاكرته صوت نسمة وتحفزت كوامنه وأحاسيسـه

الشهوانيّة حين لمح باطن ركبتها، فسرتْ فيه رعدةَ جنسـية، الأمـر الذي جعل كتفيْ الجسد الواحد ترتعشان بإيعاز تقززي من خاطر سـريع غاضب لخالد:

كيف استطيع أن أضاجعها في جسدي الواحد.

تزوجت مسيحيّ أوروبي، هربت معه.

أنت أنا، هو أنا، مسلم مسيحي بوذيّ.

كان شوان غارقًا في تهويمته الصوفيّة، غائبًا بعض الشـيء عـن تهويمته الأخرى المتشاحنة والمتآلفة، عندما قطع عليه الصمت كارل هاتفًا:

- ماذا هل نسينا الشمعةَ؟

- لنبدأ الغناء؟

يلف حول المنضدة وهو يغنّي:

- عيد ميلاد سعيد

- هبي بيرث دي

.. ..

تل لوكس فسلس دي

.. .. ..

تختلط الأصوات والجمل العربيةَ والإنكليزيةَ.. العبريـةَ.. الأسـبانية الصينيةَ.. ويهتف صوت بالأسبانية تسقط هيلانة، وآخـر بالعربيـة نسمة.. يلف حول المنضدة ويتوقف فجأة بعضه من التعب ومـازال هناك في بعضه الآخر نشاط، فتضطرب الجمل فيه.

ها.. فل.. ر..

فيندفع صوت خالد بين الفوضى واضحًا يعترض:

- أقترح مادمت لفكر بوقت واحد أن أدع غيري الأنا يتكلم حين أنهي أنا غيري من أية جملة!

- ربما في ذلك حد من الحرية.

فيوافق الصيني:

- لا بأس حتى أدرك الأمر الذي فيه جليًا.

قاطع بلْ من دون مناسبة:

- أنا الآن جائع.

فأكد كارل:

- لديَ الفخذ المشويَ.

- أنا أعرف أني نباتيَ وغير جائع الآن.

- اللحوم المقلية أحبها أكثر من المشويَ.

- هذه حال مقرفة أحبُ الطعام وأكرهه، يجب أن يأتي البروفيسور!

- دعوني إن كنت أنا الآخرين أطفي الشمعة وحدي.

"يتركون له حرية الاختيار فيدرك عقله أنهم لا يمانعون حيث تنسلب اليدان والرجلان وفق إيعاز بلْ، فيدور ثانية حول المنضدة ينفخ الشمعة، بعد فترة يقف لاهثا كشيخ عجوز، ويأتي صوت ما مُختلطا بأكثر من لسان":

- يجب أن يحضر البروفيسور!

يزعق خالد، يحتد موشي، يهتف بلْ بضجر:

- كفى.. كفى حال لا تطاق.

كان البروفيسور "ج" يراقب المشهد من غرفة المختبر ويدوّن ملاحظاته، فاستدعى الممرضة وطلب منها أن تجهّز حقنة المهدىء، ثم اتجه مسرعًا إلى غرفة المريض، وبادر ملاطفًا:

- حسنًا حسنًا يمكنك أن تهدأ الآن.

اختلطت لغات نسي أصحابها اتفاق خالد بعدم التعجل في كلام أي منه هو قبل الآخر، فقال البروفيسور:

- ما هكذا اتفقت.

كان الصيني في حال من الدهشة:

- أريد أن أعرف حالتي بالضبط.

اقترب البروفيسور نحو الجسد المنتفض أمامه:

- لا أقول إني متعدد، آخرين ينظرون إليّ لكني واحد ينظر إلى أسراري بصيغ مختلفة.

- مثل ماذا؟

- موشي أو بل أو نحن الآخرون.

تتحرك نبذبات على إحدى اللوحات الخلويّة فيدرك البروفيسور أنّ إحدى الشخصيات النائمة استفاقت فجأة ويسمع صوت كارل يوضح:

- أظن أن ما أمرُ به شبيه بعصر تفكك فيه الآلهة قبل اندماج بعضهم، لقد تحدثت الأساطير القديمة عن اتحاد ثلاث إلهات في إلهة واحدة، ماذا تقول عن إلهة الحب والجنس والحكمة؟ وأقسم لو رأيت هيلانة في سنّ غير العشرين لأدركت أنّ الزمن زيّف نفسه وابتعد عن عام ١٩٥٦ إلى حيث لا أدري، ليجتمع في أكثر من شخص فأتعب من

الدوران بصفتي أستاذًا جامعيًا عجوزًا، ولا أعاني ذلك وأنا في زمن آخر أعيشه، كوني موشي أو بلْ ذا الثلاثين أو أي آخر أجده أنا.

- من الأفضل أن أتحدّث الآن مع خالد وسوف تتكشف الأمور بعد اللقاء.

اعترض موشي وكارل:

- لِمَ معي أنا خالد بالذات؟

ربما اعترضا وهما يُدركان جيدًا أنّ هناك شيئًا ما يشعران به ولا يُدركان كنهه يجعل من خالد أكثر سطوعًا، إنهما معه وهو هما كما هو الآخرون يقرءان هواجسه ويفهمانها حالما تتكون، ويفهمان لغته ويقرأ هواجسهما ويفهمها أيضًا ولا يعيقه عنهما، كما لا يعيقهما عن بعضهما والآخرين أي شيء سوى عامل الزمن، مع ذلك بقي شيء يميزه، لذلك ردّ البروفيسور " ج" بلطف:

- أنا عند وعدي، بعد اللقاء تتضح أمور كثيرة.

في هذه الأثناء، بدأ الدواء يسري في الجسد المضطرب:

- افترض أنك خالد وحدك، ثم افترض أن هناك نوعًا من التناسخ حلّ فيك، قلت افترض، وقل لي بالضبط بماذا تفكر لو رأيت نسمة؟

- كنتُ أفكر باللجوء إلى العنف معها، في الوقت نفسه زاحمني بلْ فأثاره مشهد باطن فخذيها، كان جلدي يقشعر وسألت نفسي إنها قشعريرة تراودني حين أفكر بالنوم معها في جسدي الحالي.

- لكن قد يقتلها فمن يُعاقب؟

انتبه البروفيسور إلى أنّ موشي اعترض حيث مازال يدرك مع خالد بعض أسئلته، فانتظر قليلاً وامتنع عن طرح الأسئلة على خالد، وشيئًا فشيئًا راحت العينان تذبلان، شعر بالخدر، وبعد لحظات لم يعد يشعر أي من ساكني الجسد بشيء، ألقى نظرة على جهاز لوحة الحلم أخيرًا ألقى نظرة عابرة على الكعكة والشمعات الخمس، كان يأخذ طريقه إلى خارج غرفة المريض وذهنه منصرف إلى الغد وما يأتي به من لقاء جديد.

- ٧ -

لم يكن يحب أن يستبق الأحداث قبل أن يمهد لمريضه القبول بـــالأمر الواقع من غير أن يحدث له هزة عميقة، أو إن كان ولابد من الصدمة فلتكن وفق رأيه على مراحل، ولكي يحقق هدفه في ضـــمان نجـــاح تجربته الجديدة التي لم يسبقه إليها أحد من قبل؛ فإنه كثف اتصالاته بشخصيات كانت ذات علاقة بكل هؤلاء الذين تحدثوا إليه بكامل وعيهم ولمّا يدركوا من هو فيهم، لقد وفّر لكل تلك الشخصيات الظروف وتحمّل نفقة سفرهم، اتصل بالأميرة بسمة وشرح لها مشروعه ووعدها بتوفير الحماية، في البداية فوجئت بالطلب، كانت لا ترغب في أن ترى أخاها يتعذب، لكنها استسلمت أخيرًا وفضّلت أن تجده حيًا على أن يكـــون مات تمامًا، ولاشك في أنّ البروفيسور نجح بأسوبه الخاص أن يقنعها ويبعدها عن عقدة الشعور بالذنب، التي راودتها بعد مصرع أخيها.

ومن قبل اتّصل بالسيدة "ديزي" فحضرت إلى مختبر المشفى وقابلت "بل" الحديث سجلته لوحة الكومبيوتر وراجعه البروفيسور مرات ومرات، ونظنه كان على جانب كبير من الدقّة حين طلب من السيدة ديزي إخفاء كثير من المعلومات عن بل، حتى لا تفقده المفاجأة توازنـــه وســـط شخصياته الأخرى المتلاحقة في الزمان والمكان، كما طلب منهـــا أن تستعد للقاء آخر.

أيضًا تمّت اتصالات مع "هيلانة" شرح لها أبعاد تجربته وبعض التفاصيل، في البداية امتنعت، واقتنعت أخيرًا شأنها شأن الأميرة نسمة، لتجد نفسها أمام فرصة نادرة؛ دعوة مفتوحة لزمن بات على ما يبدو غريبًا عنها وإن تكن عايشت أدقّ تفاصيله قبل أكثر من أربعين عامًا.

بقيت لديه قضيتان اضطر بعد تردد تجاهلهما؛ القضيّة الأولى تندرج ضمن العقبات السياسيّة، الصين بلد مغلق مجهول الداخل، ذلك يعني أنّ الاتصال بأهل شوان يتطلب إجراءات ومراجعات رسمية، وجهدًا قد لا يُسفر عن موافقة إيجابيّة من الجانب الصينيّ المتزمت؛ بالتالي يضيع الوقت والجهد سدى!
أمّا العقبة الأخرى فهي التي تخصّ "موشي"؛ الاتصال ممكن بإسرائيل أو كوبنهاغن، لكنّ في الأمر مغامرة تجرّه إلى إشكالات شرعية تتعلق بالفقه اليهوديّ، موشي نفسه تهافت في إحدى تداعياته كما تثبته اللوحة الإلكترونية، وحواره مع شخصه الآخر أنا بلْ أقتل وقتلت فهل أحاسب أنا موشي، لابد أن أدفن وفق تقاليدنا، فضلاً عن أنّ الحالة الجديدة لموشي قد تُدخله إذا ما أعلن عنها في مواجهة سياسية مع إسرائيل.

لتلك الاعتبارات ألغى فكرة الاتصال بالصين والدنمارك حيث تقيم عائلتا "شوان" و"موشي"، واكتفى بما تمّ لحدّ الآن.. وقد حضرت النسوة الثلاث..

قبل اللقاء فكّر البروفيسور " ج" كثيرًا، ثمّ لجأ إلى استطلاع العقـل الإلكترونيّ: هل تدخل النسوة مجتمعات، أم واحدة تلو الأخرى؟، كلتا الطريقتين لها سلبياتها وإيجابياتها والتجربة الأخرى المُكمّلة يمكـن أن تكون في جسد أنثويّ ذي تعددية أيضًا، إنه يريده أن يكون اللقاء الأخير ليطلق بعده تجربته الجديدة في العالم.

أخيرًا كُنّ في الطريق إليه..

كان خالد أوّل من انتفض، وقد نسي غضبه:

- أنا إذًا متأكد من أننا لسنا في أي زمن آخر، ها هي لم تتغير نحن في عام ١٩٧٣.

والتفت إلى غضبه الذي كاد يتلاشى أمام فرحته بواقعه الزمني الذي جسدته نسمةَ في حال احتفاظها بشكلها، فهتف وسط الغضب والرضا:

- خائنة مجرمة، خائنة مجرمة

خطا لينشب يديه في رقبتها أو يهوي بكفه على خدها، لكنّـه وهـو كارل أثقل خطواته وغزاه عالم سحريّ من العطر والأنوثـة، كُنـتَ منزويًا عن النساء إلى سنّ الخمسين، حتى أثارتك هيلانة ذات الثمانية عشر عامًا، وتأتيك الآن من أقصى الجزيرة فتاة في منتصف العقـد الثالث، قد تكون في سنة لا تبعد عن عام ١٩٥٦، وهناك رغبة محمومة لعناقها قبل أن تؤذيها بجنونك، انس أنك خالد، تحدث مـع هيلانـة بالأسبانية وعانقها، أنت كارل عانقها، في الوقت نفسه عادت قشعريرة التقزز تجتاح كتفي بل، ودوار شهواني لذيذ يجرف برفق كارل.

توقفت يده ونسي للحظات أنّه خالد، ولمّا يعانقها بعد، فقد شخصت في تلك اللحظة بينهما تلك العجوز التي لا يتذكر أين رآها، لكنّ رائحتها لا تخفى عن ذاكرته:

- معقول؟

- كارل؟

في الستين أو أكثر تراه، أين كان خلال نصف قرن، يمكننا أن ننسى نغيب نغفو لحظات، وإن طال بنا النوم تنتشلنا الأحلام من الغيبوبة.

- ديزي ها أنت لم تتغيري.

- أنا لم أتغير

- كنت أظنّ أنك تعودين كما افترقنا.

كانت اللحظات تتشطر وتتشظى أمامه ليدرك كله في سباق محموم، ونسي أنّه اتفق مع أجزائه أن ينتظر أيّ واحد منه حتّى ينتهي الآخر، البروفيسور أخبره باللقاء، وتبين أنه انهزم من عامل الزمن الذي راهن عليه، أمامه هيلانة عجوز، وديزي، وبسمة أيضًا كادت أن يسبقها الزمن بأربع سنوات، وافق في نفسه موشي جلاده أو عدوه القديم، وشوان هو الآخر في تهويمته الصوفية، لا يقرأ زمانه في وجه أية واحدة من هؤلاء، أم كُتِبَ عليه أن يرى نسمة أختًا ثم يجد نفسه في اللحظة ذاتها كارل لتثير فيه الشبق، كله لو بعضه في حيرة:

- هل نعود إلى اتفاقنا؟

- ابدأ أنا..

خطأ بلْ فصمت الآخرون، وربت على كتف ديزي:

- قولي لي كيف ابتلعكِ الزمن بهذا الشكل؟

بقيت صامتة فاغتنمها خالد فرصة لتقريع أخته:

- ماذا حصدت من تحقيق شهوة جارفة، سوى تلويث سمعة عائلة بكاملها.

بقي بلْ مشدودًا إلى ديزي، أما كارل فجذب جسده باتجاه نسمة متجاهلاً تقزز خالد وحنقه:

- أيمكن أن نلتقي ثانية؟

واستدار نحو هيلانة مستغلاً لحظة سكون رانت على شخصيته الآخرى ليقول شيئًا أقرب إلى الإهانة، فأعرض في آخر لحظة شدّه فيها خالد صائحًا:

- كفى أهو حلم أم يقظة؟

وانفجرت الأصوات بوقت واحد، تداخلت لغات وجمل، وتناثرت نزوات ورغبات، أو حنق وتقزز، وواجهت النسوة الثلاث حبًا وغضبًا أو احتقارًا، تجاذب لانتقام يثنيه دفء وحنان، وهذا الجسد الحي يتسلم أكثر من أمر، اللوحة الإلكترونيّة تُسجل اضطرابًا وفصلاً للجمل المتداخلة، بين العبري والصيني والعربيّ والأسباني أو الانكليزي:

- إني أحتقرك.

- هربتِ مع عشيقك.

- ما يهمني من هذا الأمر لم لمْ يأت أحد من الصين!

- أتراني لو قتلت نسمة من أكون شوان أم خالد أم..

- ديزي هناك أكثر من شخص وأنت تغيّرت.

كان الغضب والدهشة والعاطفة المتدفقة في الآن نفسه تنسيه الاتفاق السابق، فازدادت حدّة الأصوات وقسوتها الأمر الــذي أذهــل النســوة الثلاث فبادرت الأميرة إلى القول:

- هذه ليست حياة بل تعذيب!

وانفجرت عيناها بالدموع ثمّ غادرت الغرفة لتقتفي أثرها الأخريــان، كان البروفيسور "ج" يراقب المشهد من غرفة التحكم فــي مشــفاه المختبر، حيث تأكد بعد هذا اللقاء تمامًا أنّ عليه أن يتخــذ الخطــوة التالية ليكشف لمريضه ما وعده به منذ عدّة أيّام.

- ٨ -

عزيزي آدم المستقبل..

آدم الجديد..

إنك تعرفُ نفسك بعدة أسماء؛ خالد، موشي، بل، كارل، أسماء طويلة ومألوفة، مع أنك تدرك جيدًا أنك تنتمي إلى أرومة واحدة هي الجنس البشري المتمثل بالرمز آدم. لذلك كله أرجو أن تدع لي حرية الاختيار في أن أخاطبك بهذا الاسم الذي يرمز إلى تلاقي أكثر من حضارة، ويدل على أصل واحد عنه انحدر العرق البشري، الذي بدأ ينسى أصوله، ولابدّ من صدمة تعيده إلى جذوره الأولى. فاسمك الجديد الذي أمنحك إيّاه وأظنك ستحبه بمرور الزمن سوف يحلّ لغز زمن غامض واضح، تعاني منه لأنك لا تعيش بصفتك بلْ عام ١٩٦٦، أو فرانس المنتحر في عام ١٩٥٦، أو في أي عام آخر كما تتصور ذلك عام ١٩٧٦، نحن الآن نعيش في عام ١٩٩٥، بالضبط في اليوم الأول من الشهر الرابع.

عزيزي آدم..

إنك لن تفهمني ما لم تقبل الوضع الجديد الذي وضعك فيه العلم الحديث المتطور، المنبثق من حضارة ألفها خالد وكارل، ومسميات أخرى تعايشت وامتزجت دون أن تنصهر تمامًا، فجاء دور العلم ليجعلها تذوب مع بعضها وتكوّن كتلة واحدة يصعب الفصل بينها.

إني كما تعرف البروفيسور "ج. جونسون" أمريكي من أصل بريطانيّ، أملك أكبر مشفى في نيويورك، وآخر في هونغ كونج، وثالثا ضخمًا في لندن، والحق إن فكرتي في منحك الاسم لم تكن وليدة المصادفة، لقد راودتْ ذهني منذ كنت طالبًا في الكلية الطبية؛ يومها سألت نفسي عن الإنسان والحضارة، قبل هذا اليوم تعرفني معرفةً سطحيةً بصفتي طبيبك المعالج، ومن قبل سألتْ نفسي أليست حضارتنا مزيجًا من حضارات مختلفة، عربيةً وصينيةً وأمريكيةً وأسبانيةً وعبريةً و.. أليس العقل البشري هو الذي أبدع كلّ هذه الحضارة الراقية؟
إذاً يمكننا مزج العقل البشريّ!

إنّ علاقتي بك تمتدّ إلى زمن بعيد، فهذا الجسد الذي يحمله آدم أنت جسدك الذي شككت فيه يتألف من أعضاء أخذت من عشرات الأشخاص، أناس ماتوا بحوادث مختلفة، أنسجة حيّة، إنّ جزءًا مثل اليد تجمّع من عشرة أشخاص أو أكثر، كذلك الأمعاء والمعدة والكبد، حتى تجمّع لديّ جسد كامل يمكن أن أركبه في شخص واحد!

سوف ابدأ معك من حيث تريد، لكني أوضح لك أنك سوف تكون عديم الفائدة كونك ميتًا، فلم لا أبعث فيك الحياة بصيغةٍ جديدةٍ، لأنّ كلّ الظروف ستكون في خدمتي، فرصة لا يضيعها عالم مثلي، لقد اعتادت كلّ الدول أن تدعوني لزيارة كلياتها والاطلاع على بعض الحوادث الخاصة المتعلقة بحالات الموت، زرت الجزيرة العربية في دعوات رسمية، ألقيت هناك محاضرات وترأست فرق عمليات، زرت فيتنام خلال الحرب والصين، وضعت خبرتي بأيدي الجميع من دون أن

أفرق بين شيوعي أو رأسمالي عربي أو يهودي، هدفي الوحيد أن أمزج العربي بالعبري والبوذي أو المسيحي، فسألت نفسي إنّ الإنسان المتعدد خلق حضارة واحدة، فهل يمكنني أن أخلق إنسانًا واحدًا من مُجمل حضارات؟

لم لا يكون هناك آدم جديد؟

آدم الذي يتآلف مع ضده ويفهم جميع لغاته؟

آدم الذي اخترع اللغات جميعها، وأصبح يلهث وراءها، إذا عرف الصينية صعُبَتْ عليه لغاته الأخرى، وإذا تحدث العربيةَ افتخر حين يلحق لسانه بلغة أخرى، ليعرف أسرارها، إنّ بإمكانه أن يعرف الأسبانيةَ ويفهم الصينيةَ والانكليزيةَ.

دعوة مفتوحة لمصالحة آدم مع نفسه ولسانه!!

لقد أصبح لدي جسد من أجزاء استخلصتها عن أجساد كثيرة، جسد ينبض بالحياة لا مخ فيه، لا عقل. الإمكانات هائلة والمهمة صعبة تتطلب وقتًا، غير أنّ ما بيديّ من أدوات متطوّرة يساعدني على تحقيق هدفي، أضف إلى ذلك الكادر الطبي الكفء الذي يشد من أزري.

أذكر لك ذلك لكي تطمئن إلى أنك سليم مُعافى، عليك فقط أن تتكيف مع وضعك الجديد، وتُقنع نفسك أنك من الأفضل أن تكون واحدًا مجموعًا حيًا، أفضل من وجودك مفردًا ميتًا، فأنا بصفتي طبيبًا هدفي إيجاد بدائل للموت، أو تأجيله لوقت ما، لعلني أو لعلّ نجاحي النسبيّ ربما يُمكِّنُ أي طبيب من توسيع دائرة الحياة إلى أبعد مدى نقدر عليه، وبدلاً من أن يعيش خالد ٢٠ سنةً أو موشي ٣٠ والآخر ٨٠ وكارل

٥٠، بدلاً من كل ذلك يمكن أن اجعل هؤلاء مجتمعين في واحد يعيشون سنوات طويلة، لا نضطر خلالها إلا إلى تبديل الجسد، لأن مشـــكلتي الحقيقية ليست مع الجسد وحده.

عزيزي آدم الجديد..

الخطوة الثانية بدأتها بعد تجميع جسدك، تلخصت بجمع الأنسجة الحيّة لمركز العقل البشري؛ المخ، رحت أركب في الجسد الجديد خلايا مخيّة لعدة أشخاص، لا يمكنني أن أغامر مع المخ كما أفعل مع الجسد، لئلا تحدث فوضى في التمازج، فتكون النتيجة إنسانًا أشبه بالمجنون، من هذا المنطلق وضعت الحد الأعلى لتركيبة المخ، فوجدتها في التجربة الأولى يمكن أن تتم بأخذ عينات خلوية حية متقاربة النسبة لخمســـة أشخاص من حيث الحد الأقصى، يمكنني أن أركّب جسدًا من خمسين أو ألف شخص، أما المخ فلا يمكنني أن أغامر معه بخمسين، الحـــد الأعلى لتجربتي الأولى خمسة أشخاص من حضارات وبيئات مختلفة، وأزمان ليست بعيدة جدًا، لأنني لا أملك أية خلايا قبل العـــام ١٩٥٦، ولو وجدتها لما غامرت خشية من حدوث مضاعفات عقليّة.

لقد تحققت التجربة، أستطيع القول نجحت إلى درجة كبيرة، إذا أردت الاطلاع على تاريخ جسدك فبإمكانك مراجعة السجلات المخزونة داخل الشاشة الصغيرة، قرب رأسك عشرات الأشخاص بل مئات كوّنوا يديك ورجليك وأمعاءك وجهازك الهضمي والتنفسي والجنسي، ولعلك لحظت تغيّر بعض أعضائك حالما استفقت، إنّ الظروف المحيطة بي لم تمنحني الفرصة لآخذ بعض أجزاء جسدك حين كنت مفرّقًا متنـــاثرًا، أو كمـــا

تسميه زمن الآلهة المفردة فيما قبل الواحد، أما تاريخ عقلك فتجده على الجهاز الأكبر حجمًا يمين سريرك، وأرجو أن تعلم من خلال خطابي لك بصيغة المفرد أني حررت هذه الرسالة باللغات التي تفهمها مع معرفتي أنّ أيّة منها تفي بالغرض، لكوني لم أرد أن أثير حفيظة بعض أجزائك على حساب الأخرى، حتى يتمّ الدمج التام عبر مرحلة الزمن، إنّ عملي فيك أنت الواحد المتآلف من متعدد لم يأت اعتباطًا أو ارتجالاً، بل إنّ الفكرة نمت وتبلورت منذ وقت طويل، إذ كنت وأنا أتابع التطور العلمي وأخترع أجهزة جديدة في مجالي الطبّ والكيمياء أتساءل مع المحال: هل يمكنني أن أتحف العالم عبر نموذج متعدد، أجعله واحدًا على الرغم من فروقات العقل واختلاف الأجساد؟

أظنني نجحت بنسبة ٥٠%، والنصف الآخر يعتمد عليك أنت جميعًا، سينام بعضك ويصحو الآخر، وتجوع وتشبع في الوقت نفسه، أو تغضب وتهدأ في الآن معًا، وكلّ ذلك يخضع لإرادتك أولاً، ولعامل الزمن بالدرجة الثانية، ذلك العامل الذي تجسّد فيك واضحًا حين كان الغموض يخيّم عليك فلم تعرف من أنت.

كل ما أرجوه أن تفهم أنك آدم الجديد، الذي يمكن أن نحفظ به البشرية مجتمعة، بكل تاريخها وحضارتها وأظنك تتفق معي في هذا.

- ٩ -

أوراق من مفكرة السيد" ج"..

الخميس ٢٢ مارس ١٩٦٦

المكان: فيتنام الجنوبية مشفى هانوي.

الساعة الواحدة كنت أتجول بين الجرحى والمصابين، أمامي جثة هامدة لجندي اسمه"بل"، العمر ثمانية عشر عامًا، عنوانه....، لغم.. طلقات اخترقت الجسد من جهة الكليتين، موت سريري، عند تشريحي الجثة استوقفني المخ، خلايا الذاكرة، أجزاء من النسيج يمكن إنعاشها، فصلتها ثم قمت بوزنها ١٤ مليون ترليون، يجب عليَّ أن أحتفظ بها حية لدي.

١٣ أكتوبر عام ١٩٧٣

اليوم تلقيت مكالمة من المليونير الشهير "أ.س. موشي" الدنماركي الأصل، في الوقت نفسه اتصلت بي لجنة من مشفى تل أبيب، صديقي مدير المشفى"ي بيترسون" سألني حول إمكانية نقل جريح إلى مشفاي في لندن، المصاب شاب في الثامنة والعشرين، وجدت موشي مات موتًا سريريًا، سوف يفقد الحياة بعد بضعة أيام، يبدو أن عمليات بالغة الدقة أجريت له في تل أبيب، والمشكلة تنحصر في الدماغ، النزف البطيء مستمر حول المخ، هناك احتمال تخثر، مع ذلك لم يخامرني يأس، أحدثت ارتجاجًا إلكترونيًا في الدماغ لأبعد خلايا المخ عن

التيبس بسبب التخثر، استطعت أن أنقذ ١٥ مليون ترليون خلية حية، الحق أنا سعيد جدًا بعملي الذي لم يثر أي انتباه.

١٢أكتوبر ١٩٧٦

المكان: الرياض، مشفى الملك..

الثانية ظهرًا، اضطررت لقطع محاضرة كنت ألقيها في كلية الطب المجاورة لمبنى المشفى، من المعلومات الأولية علمتُ أن شاحنة صدمت سيارة أحد الأمراء، كُلفتُ بالإشراف على الأمير المصاب، أبلغ الإصابات كسور في الرأس وتهشم في الأمعاء، القلب ينبض بالحياة، غيبوبة.. كان من المحال إنقاذ حياة المصاب، فرصة أخرى تخدمني بعيدًا عن عامل المصادفة، هذه المرة حصلت على أعلى نسبة، أكبر من الكميتين اللتين أخذتهما في المحاولتين السابقتين، الخلايا النابضة بالحياة تزن ٢٠ مليون ترليون، هناك احتمال سابق لأوانه يدل على أنّ النسبة الأكبر سوف تجعله هو الشخص الأقوى في المركب الجديد، مجرد احتمال، إذا لم أحصل على خلية حية تزن ترليون أكبر فشخصية خالد ستكون هي الأكثر وضوحًا في هذا الخليط.

الأربعاء ٢ نوفمبر ١٩٨٦

المكان: بكين.. مشفى بكين.

هو ثاني يوم أقضيه في الصين، الغرض من الزيارة إلقاء نظرة على أجهزة المشفى والآلات، وتقدير العوز، وفق اتفاق ثنائيّ بيني وحكومة بكين، وهو ثالث يوم لاندلاع مظاهرات معارضة تطالب بالإصلاح، خلال أوقات فراغي تابعت باهتمام أخبارًا تنشرها صحيفة

الصين المركزية الرسمية، ليس من مصلحتي التدخل أو الاعتراض، فأنا بصفتي مدير شركة طبية وصاحب مختبرات ومشفى في هونـــغ كونـغ أتقيد بالبروتوكول العام، حول تبادل الخبرات وإجــراء تجـــارب وعمليات، في هذا اليوم بدأتْ حكومة الصين تستخدم العنف، فيما بعد طلبَ مني الإشراف على حالة جريح دخل في غيبوبة، عرفــت فيمـــا بعد أنه أحد زعماء الطلبة البارزين، وأن إطلاق النار عليـــه حـــدث خطأ، إذ حاول المسؤولون إنقاذ حياته تفاديًا لحدوث ضـــجة كبيـــرة، استلمت التماسًا من وزير الصحة وموافقته على نقل المصـــاب إلـــى هونغ كونغ إذا تطلب الأمر.. ما حدث بعد ذلك يشبه الحالات السابقة والنسبة هذه المرة ٩ مليون ترليون فقط.

الجمعة ١١ فبراير ١٩٩٠

المكان: بوينس أيرس

خلال زيارتي للمشفى عرفت أنه هناك خلايا حية مجمدة مـــن عـــام ١٩٥٦، صديقي البروفيسور "ر.ع" أخبرني أن الوثائق أشارت إلـــى أنها تعود إلى أستاذ جامعي انتحر، وأن المشفى احتفظ بها لإجـــراء التجارب عليها، وفق وثيقة سماح صادرة من زوجة الـــدكتور، وأنَّ المشفى يروم التخلص منها، الآن النسبة ١٠ ونصف ترليون.

الثلاثاء ٤ يونيه ١٩٩٦

شيء رائع اكتملت التجربة، الإنسان المُركّب حقيقة لا مراء فيها، بعد أربع وعشرين ساعة يستفيق، أربع وعشرون ساعة فقط.

الأربعاء ٥ يونيه ١٩٩٦

اخترت له اسم آدم الجديد

الخميس ٦ يونيه ١٩٩٦

استفاق! صحا آدم الجديد!

كادر التمريض حاضر.

يبدو نشطا، لا شيء خطر، الأفضل أن يبقى راقـدًا إلـى أن يطلـب الطبيب هو نفسه، مظهره الخارجيّ يُشير إلى تحسن صحتَه.

السبت ٢٢ يونيه ١٩٩٦

تحقق ما تنبّأت به سابقًا في مفكرة ١٢ أكتوبر ١٩٧٦، حين بدأت أدوّن الأسس النظريّة لتجربتّي الموعودة، لم أستطع مزج الخلايـا مزجًـا يوحدّ الذكريات كلّها بصيغة واحدة، فلا يجد اللاتيني نفسه معزولاً عن العربيّ والأمريكي عن البوذي أو اليهودي، قد لا يرضى آدم حاليًا عن وضعه المتعدد، وربما يثور على شخصياته، لكنه بمرور الزمن سيقرّ الأمر الواقع ويدعو بعضه بعضًا إلى التـآلف مـن جديـد: آدم الأوّل البسيط الذي انحدرت منه سلالة البشر، لقد بقيت كل شخصية تتمتع بذكرياتها، وبدت شخصية خالد أكثر سطوعًا لنسبة ترليوناته الزائدة، أمامي حلأن لتفادي التضارب والفوضى التي يبعثها لختلاف الأهواء، الحل الأول عامل الزمن حيث أظن أن الخلايا ستحتك مع بعضها فيتم التوافق خلال سنة أو أكثر، ليقبل كل واحد الآخر كما لو كـان هـو ذاته، أو اللجوء إلى الأشعة المازجة مع الالتفات إلى النتائج السلبية المترتبة عنها.

أعتقد أن عامل الزمن هو الأوفق حيث سيترتب عنه وضـــع يُرضـــي الجميع الواحد، وذلك شأن خاص بآدم الجديد وحده.

- ١٠ -

بعد أن قرأ آدم الجديد تاريخ حياته السابق راودته انفعالات متباينـــة، ذاته الصينيّ وجدها مرحلة أخيرة لصوره المتمثلة بعوالم امتدت لملايين السنين التي تناسخت في عمر الكون، وكان كارل الفيلسوف مندهشًا لصيغة الجمع تلك التي تمثلته في تحوّل الأسطورة إلى واقــع، كـــان البشر يخلقون أساطير أما الآن فالأسطورة خلقت الإنسان، هيلانة إلهة الحب والجريمة والجنس، أربع ديانات خمس قوميات تمسّــكن رأسًـــا تآلف هو والجسد من عشرات الأشخاص، لأيّ بلد ينتمي وأيّ ديـــن يعتنق، سيزحف اليهودي لينكر المسيحيّ والمسلم فيـــه، أم يخطــف الجميع البوذيّ إلى تحوّل آخر، وقد خطفه بالفعل الآن إلى آخر تحوّل هو فيه أم يقوم خالد بدحر هؤلاء الأنجاس.

الانطباعات تلوح متباينة على وجه آدم، المهمّ أنّـــه طلـــب مقابلـــة البروفيسور "ج"، وكان خالد أوّل من أبدى بعض الملاحظـــات، كـــان يرغب في إيجاد مخرج من نفـــق مظلـــم، وهـــو يـــدرك جيـــدًا أنّ البروفيسور نفسه يصعب عليه البتّ في مثل هـــذه الأمـــور، وفـــي محاولة من البروفيسور مواساته قال:

- دعنا نتكلم بصفتنا أصدقاء، ألا يسعدك أن تكون حيًا؟

- طبعا، لا سيما إن كنت وحدي.

- من أجل هذا فقط تبدو غاضبًا؟

حاول آدم موشي أن يتدخل فواصل آدم خالد:

- لا أرجوك الحظ وحده جعلني هنا أمتاز بعض الشيء.

فقال البروفيسور مؤكدًا:

- أنا أعترف بما قلته لأنّ نسبة التريليونات كانت متباينة، لكنّ جميع الأطراف فيك آدم تدعي أنها غير مستقلة، وتركز علـــى اســـتقلالية الجسد، فهل تظنّ أننا نحن الأفراد مستقلون؟ أتظنني أنا؟ العالم الآن أصبح قرية صغيرة ولن يجد أيّ منا نفسه مستقلاً في الكون الواسع.

قال آدم وقد التفت إلى موشي فيه:

- من فيّ يكون على خطأ؟

قال آدم خالد:

- الآخرة؟ النار؟ العذاب، قد أقتل أنا آدم أيّ كائن فأيّ كفّ تحرق؟ قد أقتل أنا آدم كارل فهل تُعذب الأجساد النائمة في مقابر منتشرة علـــى الأرض؟!.

قال آدم موشي:

- إنّي أعترض، فمفهوم الآخرة غير واضح عندي.

أخذت المفاجأة البروفيسور فقال:

- تلك مسائل فقهيّة لا أفهمها.

آدم كارل:

- من المسؤول؟

- أظنّ أنّ الزمن كفيل بالإجابة عمّا تفكّر به.

تساءل آدم بل:

- الآن فهمت لمَ صرخت الثلاث هذا عذاب أم حياة وهربن.

آدم شوان يخرج من تأمله بعض الوقت:

- دخلت أمكنة وأزمنة وقُتِلت في جيل وقتلت وكنتُ سيدًا ثم حشـــرة تحولت عاليًا ومنحطا لعله لم يكن الخلاص الأخير أو هو كذلك.

آدم بل:

- محاولة إيجاد الحياة لا تبرر السلوك الخاطيء.

آدم موشي:

- فعلاً حسن نية مشوب بخطأ فادح.

- عزيزي آدم خالد لا استغرب موقف شاب متحمّس مثلك، إذا ألغيت كلّ الانفعالات الجانبية وجدت النقيض تمامًا، لأنك عدت إلى الحياة من جديد واجتمعت بعدوك الذي حملت له عداء ضارب الجذور في القدم، بل أصبح نفسك، ذلك ما ذنبي أنا حين أحاول أن أوحد العالم!

ردّ آدم موشي:

- بغض النظر عن حسن نيتك، لكن ما ذنبي أن أعيش ذكرى لا تخصني مثل ديزي، أو أعشق أختي، وربما أسمع مفهومًا لا أفهم صـــورته، كالآخرة، وذهني مشغول بأني وريث أهلي الوحيد، وكيف أرث أبي.

هزّ رأسه يطمئن الجسد الشاخص أمامه:

- لا يمكن أن يتحقق كلّ شيء في فترة قصيرة، أنـــت الآن مســـلح بالثقافة والتراث والعلم، فلا تنس الواقع المشرق مـــن أجـــل أمـــور ثانويّة.

آدم كارل:

- أمر واقع لا ينفع فيه رفض أو قبول.

- هذا يعني أنك حزين!

- جربت الحياة والموت، فلأجرب أكثر.

وأكّد آدم شوان:

- الحقيقة هي المرة الأولى التي أسافر إلى خارج الصين، شيء رائع أن تخترق سورين، واحد بناه القدامى وآخر الجدد، ليحولوا دون رؤيتي العالم، يكفي أنني أعيش عالمًا آخر.

عندئذ عقّب البرفيسور:

- أنا سعيد جدًا، ربما لستُ أكثر منك، وأفهم حزنك وسعادتك، سعيد لأني جمعت إنسانًا يُعدُّ الوريث لكلّ الحضارات والأفكار والأديان، الإسلام المسيحية اليهودية، ديانة الشرق القديم، الأسطورة الفلسفة، الأجناس الأصفر الأبيض الأحمر، الموروث العالمي عندك، وأنا فخور بك.

لم يجب آدم، لاذ بالصمت بجميع أجزائه وخلاياه، كان يُفكّر بسؤال ارتسم على شفتيه: "ما الذي يمكن أن يفعله بعد أن يخرج من المشفى؟"، هل يفكر بتدمير العالم أم الاندماج فيه، ظنّ البروفيسور أنّ آدم يتأمل نفسه فالتفتت عيناه إلى الشاشات الحسّاسة، وأدرك مفهوم الخاطرة، عرف أنّ آدم تجاوز مرحلة الخطيئة وكيف يعاقب إذا خرج عن القانون، وقبل أن يخطو خارج الغرفة استوقفه صوت آدم الذي جاء هذه المرة حادًا حزينًا يحمل كلّ المتناقضات:

- بروفيسور جونسون من أنا؟

كوبنهاغن ١٩٩٦

سُكَّان مختارين

لم يكن ع.ب بالشخص المعروف من قبل، لكنّ شهرته الحالية اعتمدت على عبقريته أكثر من عامل المصادفة، الحق إنه كان يرغب في أن يعيش مغمورًا بعيدًا عن دائرة الأضواء.

لا نريد أن نستبق الأحداث، فشهرة الرجل ارتبطت بحدث كبير سجله تاريخ الأرض، بصفته أخطر حدث منذ وعت البشرية تاريخها، وكاد يكون أكثر خطورة من قنبلتي هوروشيما وناكازاكي؛ ذلك اليوم شعر الناس بشيء غير مألوف، حدث غير طبيعيّ لا يُصدّقه العقل، بـدأت الحرارة بالارتفاع في بعض المناطق التي ما تزال ترزح تحت الليـل، هبّ الناس مذعورين من نومهم، أمّا من طلع عليهم النهار فقد وقع بينهم فوضى واضطراب، أهو انفجار بركان أم ماذا؟ تطلعت العيـون إلى السماء الصافية المشرقة، العمال توقفوا عن العمـل، السـيارات ركنت إلى الأرصفة والمواقف العامة، بعض أسلاك الكهرباء اشتعلت، وانفجرت بعض أنابيب الغاز، ظلت درجة الحـرارة ترتفـع بنسـبة متساوية، لتشمل الأرض كلها، حتى المراصد والمحطـات الفضـائيّة وقفت حائرة عاجزة أمام تلك الظاهرة الغريبة المفاجئة، التي جعلـت الغيوم تتلاشى من السماء..

ولم يجد البشر سببًا معقولاً يفسرون به الحدث الحالي، كادوا يفقدون صوابهم، وأوشكوا على البدء في معارك طاحنة.. لقد دفـع الوضـع الشاذ الخلق إلى مغادرة الشوارع، والبقاء في المنازل لمتابعة أيّ خبر حديث عن الظاهرة الجديدة تبثه أجهزة التلفاز والإذاعات، كانت القنوات المرئيّة معطلة ماعدا واحدة غريبة، بدا شعار في أعلى اللوحة لمـا

يشبه وجهًا مربع الملامح، بعد قليل سمع أهل الأرض صوتًا واضـــح النغمة يقول:

- يا سكّان الكوكب الأرضيّ، نحن الذين عطلنا كلّ شيء عندكم، وهذه هي محطتنا الوحيدة التي تتحدث!

ومضى الصوت يقول بنغمة أقرب ما تكون إلى اللهجـــة الإلكترونيّـــة منها إلى صوت البشر:

- نحن قوم ندعى"جبارين" نسكن كوكبًا آخر يبعد عنكم حوالي ٣٠٠ سنة ضوئيّة، قطعناها بفترة أربعة أيام وفقًا للزمن عندكم، نحن أمـــة نفوقكم تطورًا وتقدمًا، نستطيع أن ندمركم بلحظة واحدة، لكننا جئناكم منذرين بصفتنا رسل أمتنا "جبارين"، وما فعلناه من رفع حرارة الجو يثبت صحّة أقوالنا، كلّ ما قمنا به هو نشر صفائح عاكسة للضوء في الفضاء، وتسليطها على مناطق من أرضكم لنرفع حرارتها، فإذا مـــا رفضتم عرضنا فسوف نُبقي تلك الصفائح، أو نزيد عـــددها، لتنعـــدم الحياة على كوكبكم، لكننا نمنحكم فرصة للتفكير والتأمل مدّة أسبوع، وهو وقت نظنّه كافيًا لاتخاذ موقف واضح، منْ هذه اللحظـــة عـــدّوا أنفسكم في هدنة، ومن هذه اللحظة أيضًا نحن بدورنا نقـــوم برفـــع الصفائح الفضائيّة العاكسة، كي تعود الحياة إلى مجاريها على أرضكم.

بدا شبح الموت الجاثم على الصدور يتزحزح قليلاً ولو إلـــى حـــين، والحق أنّ الحرارة بدأت تعود إلى طبيعتها حالمـــا توقـــف الصـــوت الغريب واختفت المحطة، كان يمكن أن تتحقق كارثة تُخلّفُ وراءهـــا حرائق واسعة، وهناك في القطبين الشماليّ والجنوبيّ كانت الثلوج –

لو استمرّ الحال عما هو عليه - تنصهر من الحرارة لتغطي معظـــم اليابسة، وتغرق مُدنا بكاملها، كلّ هذا يمكن أن يحدث بلحظات أو دقائق قليلة فقط!

ادرك أهل الأرض أنهم أمام عالم له قدرات ومقومات أكبر من قدراتهم بمئات المرات، أوضحها أنه يقطع سنين ضوئية متراميـــة الأطـــراف بثلاثة أيام من زمن منظومتهم الشمسيّة، كمـــا أدركـــوا أنّ رســـالة "الجبارين" موجّهة بالدرجة الأولى إلى أصـــحاب القـــرار الأرضـــي، الرؤساء والملوك والأمراء، الذين أنستهم المفاجأة جميع خلافـــاتهم، فتقاطروا على المدينة السويسرية جنيف مركز الأمم المتحدة ســـاعة وقوع الحادث المرعب، العالم الذي لم يدرك جميعه سر الغزو المفاجيء فهمَ أنّ كوكب جبارين غصّ بالأحياء ذوي العقول، العلم هناك تطـــوّر إلى درجة غير معقولة على أرضنا، فاستطاع الأطباء أن يُطيلوا عمر الفرد إلى ألف سنة من سنيّ الأرض، فغصّ كوكبهم بالسكان، وبقيت الموارد محدودة، ولكون المسألة قضيّة حياة أو موت فإنّهم أرســـلوا مراكب فضائيّة تستطلع الكواكب في الفضاء؛ بحثا عن كوكب يُنبـــت موارد قريبة الشبه بموارد جبارين، فتمكنوا من مسح أقرب المجرات إليهم واستطلاع المنظومة الشمسية، مستخدمين مراكـــب فضـــائيّة تُسابق الضوء بنسبة مائة مليون ضعفا، حتى استطاعوا الاقتراب من كوكبنا خلال شهر أرضي، فتدلت من قاعدة فضـــائية مؤقتـــة لهـــم صفائح مُقعّرة زرعوها في الفضاء، واستخدموها لعكس ضوء الشمس على الأرض، ومن ثمّ فرضوا شروطهم، إنهم يريدون نصف محصول

الأرض الزراعيّ، وإعمار الصحارى الخاوية بهدف زراعتها لتكــون حصةً لهم، أمام الأرض لتنفيذ شرطهم أسبوع واحد ليس إلا!

كانت هناك عدّة تخرّصات من أهل الأرض! وتساءل الكثيرون: "لِمَ لمْ تقدم منهم كوادر متقدّمة لتزرع هنا! هل هناك بكتريــا علـــى الأرض تفتك بهم فتحاشوا الدخول؟، إذا كان الأمر كذلك لمَ لمْ يزوّدونا بآلات متطورة نستخدمها في الزراعة؟، إنهم لا يرغبون في نشر أسرارهم، أتدرون أنّ آلاتهم المتطوّرة تلتقط كلّ أحاديثنا؟"، الباب واســـع لكـــلّ الافتراضات ولعلّ أهل كوكب جبارين لا يرغبون في التعب على كوكبنا مادام هناك من يشتغل من البشر عوضًا عنهم.

الاجتماع أبرز يأس الأرض وعجزها، إنّ الرؤساء والملوك والأمراء اتفقوا للمرة الأولى، ما عدا صوتًا واحدًا قال إنّ القضية تخص كرامة الجنس البشريّ، وقوى الأرض العظمى بما لديها من ســـلاح فتّـــاك سريّ ومُعلن يمكنها أن تردُّ على غزاةَ الفضاء، فقوبـــل مـــن أحـــد الرؤساء بالتحذير:

- إنّ أمّةً قلبت الأرض إلى جحيم في لحظات؛ لقادرة على سماع ما يجري في لقائنا الطارىء هذا.

وأكدت ملكةً ما:

- لا تنس أنّهم قد يسمعونك.

لكنه ردّ منفعلاً:

- ليذهبوا إلى الجحيم، حين تُدَمَّرُ الأرض يصبحون هم الخاسرين.

- هذا ليس حلاً معقولاً.

قال العبارة أحد زعماء آسيا، وعقّبَ أحد رؤساء أمريكا اللاتينية:

- إنّهم يروننا الآن بلاشك ويتابعون اجتماعنـــا، لقــد تســاوينا الآن أمامهم، كلنا ضعفاء!

ران الصمت لحظة في القاعة، كان الخارج يغلي خوفا بانتظـــار مـــا يُسفِرُ عنه لقاء قادة الأرض، في الوقت نفسه شاع أنّ الرئيس الذي اعترض بقي صامتا فأثار صمته فضول الآخرين قبل أن يعرفوا أنّـــه مات بالسكتة القلبية، ثمّ دلّ على نهايته المفاجئة تفســخه الســريع وسقوط لحمه عن عظمه، فلم يبق من شك في قوة جبـــارين ودقــة مراقبتهم الأرض وندواتها، فأيقن بنو آدم أن كوكبنا يمثـــل مرحلـــة الطفولة مقارنة بكون متقدّم فيه أمّة مثل"جبارين".

ما عدا الأمر السابق الذي تسرب من اجتماع قـــادة الأرض؛ فهنـــاك أنباء عن حوادث قليلة جرت بدافع الحماس، لأفراد سجلوا مواقـــف ترفض الغزو الخارجيّ، والإذعان لكل شرط أمرت جبارين أمّة الأرض الالتزام به، مواقف الرفض تمثلت بالحوادث الآتية:

- ياباني ينتحر في ميدان طوكيو الرئيسي.
- رجل بوذي يحرق نفسه وسط ساحة عامة في هانوي.
- كاتب لبناني يُطلق النار على رأسه.
- ممثلة إيطالية تُصاب بالتسمم نتيجة الإفراط في الشرب، العنـــاوين الإعلامية ذكرت أنها فضلت الموت سُكرًا على الإذعان لغزو الفضاء.

- معتوه في السويد يتعرى ويظل حتى الصباح واقفا على الرصيف، فيموت من البرد، يروى أنه قال لجيرانه إنّ الموت من البرد أفضل من الاحتراق.

- لاعب كرة قدم برازيلي يبتلع علبة كاملة من الحبوب المنوّمة فيفارق الحياة.

- امرأة أفريقية تقتل أطفالها الثمانية ثمّ تنتحر بالسم.

- حادث الحافلة من أفظع المآسي، عندما حاول سائق جزائريّ أن يُعبّر عن الرفض الجماعي لأوامر جبارين بتفجيره الحافلة المليئة بالركاب وسط حشد من الناس.

كانت الصحف ووسائل الإعلام تُقلل من شأن هذه الحوادث خشيةَ من أن تثير حفيظة كوكب "جبارين"، ثم لحقتها إلزامات من ذوي الشأن على الأرض في وجوب التزام الصمت إزاء مثل هذه الحوادث؛ لكي لا ينزعج الأعداء الذين يعرفون تمامًا ما يجري على كوكبنا، ويتابعون بدقّة جلّ الحوادث.

جمهور أهل الأرض أدرك تمامًا عبث أيّة محاولة تتسم بالعنف والتمرد! لقد أذعنت الأرض جميعها لعرض الغزاة، وأصبحت تابعًا من توابع كوكب "جبارين"، وفي مثل هذه الظروف تناسى سكان الأرض مشاكلهم الكثيرة، تركوا خلافاتهم، ووضعوا جانبًا نزاعات الحدود، وصراعاتهم التاريخية القديمة الجذور، وانصرفوا إلى الزراعة، فتغيّرت نظرتهم إلى الحياة، المعامل الحربية أغلقت أبوابها، ومصانع الجيوش، وأسلحة القتل والدمار والفتك انتهت.

كلّ حجّة تُعرقل الزراعة وتمنح فرصة للغــزاة وضــعها الأرضــيون جانبًا، أصبح الهمّ الشاغل إصلاح الأرض، يقال إنّ كوكبنا أصبح هو الفردوس، مدينة فاضلة تخلــو مــن الحــروب والشــجار والكــره والمنازعات، حقول خصبة خضراء، الصحاري اختفت؛ أضحت أراضي الجدب الثلاث: الكبرى والأفريقيّة ونيفادا جنات خضراء، أما جزيــرة العرب فلم تعرف بها حبّة رمل واحدة، نسبة التلوّث تلاشت، الأرض استعادت عافيتها، كان أهلها يكدحون ليكتفوا بالربع من المحصــول، فتهبط مراكب فضائيّة كبيرة ترفع المحصول من الحقول باتجاه السماء.

هكذا سارت الأمور!

وبهذه الصورة استقرت الحال مدّة من الزمن، لكنّ الحياة تأبى أن تسير بنمط واحد، فمن المُحال أن يسلّمَ الكون ذاته للرتابة، أو أن تخضــع الحياة لقوّة - مهما عظمت - ذات نمط واحد طول الدهر.

في هذه الفترة؛ أي عام ٢٣٠٠ يبدأ كوكب العالم "ع.ب" بالســطوع وارتقاء سلّم الشهرة، ربّما لا نجانب الصواب إذا قلنا عنه إنه عبقريّ ذو نفس راضية قنوع بالقليل، لا تهمّه الشهرة بل لا يسعى لها قــط، احتفظ بمخترعاته له وحده، كان أشبه بالراهب المتصوّف، اعتزل الناس في بستانه الكبيرة في إحدى المدن التي قد تكون البصرة أو القاهرة أو دمشق.. كان يزرع الخضروات، ويعتني بأشجار النخيل، يمــارس هواية صيد السمك، لقد أعرض عن تقديم مخترعاته للعالم، إذ خشي من أن يستغلها بعض الأشرار والانفعاليين والدول الكبــرى لغايــات

مشبوهة فتسير بالبشريّة فيما بعد نحو الهلاك، ولم يخرجه من صمته إلاّ الحادث الأخير الذي تعرضت له الأرض.

قبل ذلك بيومين فقط نجح في الوصول إلى مُخترَع من شأنه أن يجمّد الجاذبيّة حول أي جسم فلا يسقط إلى الأسفل عبر اختراعه الجديد يمكن للأجسام من أن تنطلق في الهواء دونما استهلاك للوقود، الاختـــراع تمثّل بجهاز يُطلق شحنات تُعطّل شحنات الجاذبيّة وتشلها تمامًا عـــن الجسم المقصود بعزل التجاذب، فحين يسقط شخص من علو شـــاهق لا يهوي مباشرة إلى الأرض في حالة حمله جهاز عزل الجاذبيّة الذي لا يزيد حجمه عن قرص صغير مثل حبّة الأسبرين.

وجد العالم "ع. ب" نفسه مجبرًا على البوح باختراعه الجديد، ظنًا منه أنّ من اللائق أن يُنقذ حياة الملايين من البشر من حوادث الموت التي نسمع عنها في حوادث الطيران، فأيّة طائرة تتعرض لخلل مـــا عنـــد رحلتها في الجو على ارتفاع آلاف الأقدام يمكن لملاحها أن يُطلق جهاز عزل الجاذبية أو يتركها تهوى إلى مسافة قصيرة من الأرض فيلجأ إلى تحرير الجهاز، الذي يُبقي الطائرة معلقة في مكانهـــا حتـــى وصـــول الإنقاذ إليها، ولو أخفى "ع. ب" إنجازه العلميّ لوقـــع تحـــت تأنيـــب الضمير كلما سمع بسقوط طائرة أو جموح شاحنة في نهر ما في مكان بأقصى الأرض، ثمّ إنّ الغرباء أنفسهم مطلعون على ما يدور في الأرض ومنها مخترعاته التي تبدو مضحكة قياسًا إلى ما توصلوا إليه مـــن تقدم علميّ رفيع، فهو يستطيع أن يسوح في الفضاء أو يلجأ إلـــى أيّ

اختراع مادام لا يتعرض لهم، وكأنّ القدر أو المصادفة دفعته هذه المرّة إلى أبعد مما كان يجول في نفسه!

ذات يوم صحا كغيره على جوّ خانق وحر لا يطاق، حرارة تكاد تلتف على الأرض كمشنقة، عرف اضطراب العالم وتحقق من الخوف المحيط بالأرض، إنّه كابوس ثقيل حلمت به البشرية جمعاء في وقت واحد النائم والصاحي، المعتوه والعاقل، الغنيّ والفقير والدول العظمى والضعيفة، فمن يأبه لاختراع جديد ومن يعنيه سقوط طائرة لخلل ما، مادامت الأرض نفسها سوف تسقط وتتبعثر، لتضيع في الهواء المترامي الأطراف:

"متى يدمّر الغرباء الأرض؟"

"هل ننزل عن كبريائنا لنتشبث بالحياة؟ أتسميها عبودية؟".

كانت الأسئلة تلح بخاطره وذهنه ينصرف إلى بعض مخترعاته ويتساءل ثانية: هل يواصل العمل؟، لذلك عاد إلى صمته، وتأمله، ولم تصدر أيّة ردة فعل عنه إلا حول مُختَرَع عزل الجاذبية وبدا الناس غير مكترثين كونهم منهمكين في العمل، ولعل هناك من فكر بعبث الاستمرار في المخترعات، إذ أنّ كوكب "جبّارين" يمكن أن يقدم للأرض ما تحتاجه من جديد في مجال العلم، ماداموا راغبين في خيراتنا، أيّ إحباط شعر به، بدت له الأرض ساكنة خالية من العواطف، سلام أجل؛ حبّ نعم، لا حروب، كل ذلك مقبول، الأرض أصبحت جميلة إلى درجة أنها بعثت الحزن في النفس، أشبه بحلة على جثة فتاة رائعة الجمال، الخير كله على الأرض والجمال ارتبطا بتبعية بني

آدم لقوى غريبة وعبودية لمخلوقات أخرى لم يروها بعد، وبدلاً من أن يبعث فيهم الاختراع الجديد الحماس لمتابعة مخترعات أخرى قد تُخلصهم في يوم ما، قابلوا الحدث الجديد بريبة وعدم اكتراث، أصبح الناس يخشون العلم، حيث وجدوه يسير بهم نحو الهلاك، بصور تجسدت مرة في العبودية، وأخرى في التلوث، واليوم كلّ أهل الأرض عبيد يعمرون كوكبهم لقوى مجهولة، كأنّ العبودية تحولت من على الأرض بين الطبقات فأصبحت بين الكواكب ليصبح العربي والأمريكي واليهودي والروسي والاسترالي والهندي مملوكين لأمة أخرى، لم نرها، تبعد عنا حفنة من سنوات ضوئية! عالم أول أم ثالث؟ وهم أم حقيقة! حلم أم خيال؟

لكنّ اليأس لم يتمكن من نفسه، فقرر أن يسوح بعض الوقت في الفضاء، متأملاً من أعلى قانون العبودية الجديد، الذي حوّل الأرض إلى آلة منتجة من غير عواطف أو مشاعر، وأول خطوة قام بها هي أنه صنع مركبة صغيرة من خليط لا يتأثر بالحراة، راح يعمل ليل نهار ليجعل مواصفاتها مطابقة لأيّة مركبة فضائيّة متميزة، استطاع أن يستخلص بعض المواد الكيماويّة المحلية، فيمزجها بخليط مُركّب لا يتعطل بالإشعاعات الفضائيّة، غير أنّ الاختراع لم يكن كافيًا، فدعمه بثان؛ هو تكثيف الأوكسجين، حين هداه عقله إلى مبدأ ضغط الأوكسجين الممغنط الذي يعتمد على تداخل الجزيئات وليس ضغطها، فتوفر له وفق هذه الطريقة مقدار من الأوكسجين متداخل في وعاء بحجم قدح الشاي يكفيه مدّة ثلاثة أيام.

بعد أن أنجز عمله ووضعه تحت الاختبار فكّر أن يسوح في الفضـــاء غير خافٍ عنه أن مواقع جبارين سوف تعــرف بمركبتــه، دون أن تتدخل، ما دام لم يقصدهم بعمل ضار، فهو بالمقارنة مع مخترعاتهم أشبه بطائرة في سماء الأرض، أو سيارة لا تنفع أو تضر، بل هـــي واحدة من المركبات الأرضية التي تجول في الفضـــاء مـــن دون أن يتعرضوا لها بسوء قبل الغزو وبعده.

كان بعد أقلّ من ساعة يسوح في الفضاء الخارجيّ، استمرّ مع أفكاره يتابع النجوم البعيدة ويرسل بعض الموجات باتجاهات مختلفة، فجأة.. أحسّ أنّ مركبته بدأت تتغيّر، شعر بخفّة في جسده، كأنّه أصبح صفرًا لا وزن له، أو روحًا خفيفة والمركبة حلقة تحيط به كما تلتفّ الدائرة على مركزها.

أهم جبارين؟

أعداء آخرون؟

خلل ما؟

احتمالات أكبر مما يتصورها عقله!

النجوم والكواكب تمرّ متناثرة من حوله كالوميض، بل أسرع، وجـــد نفسه والمركبة تميل به إلى التحدب من دون أيّ ضرر، لحظتها تذكّر أنّ هناك عالِمًا في القرن العشرين يُدعى أينشتاين، تحدث في نظريته النسبية عن السرعة، فأشار إلى أنّ الأجسام إذا سارت بـــأعلى مـــن سرعة الضوء؛ تحدّبت مثل الكون المدوّر؛ ودخلت في سرمديّة أبديّة،

أمّا الاحتمالات فتشير إلى أنّه وقع فعلاً تحت سرعة أكبر من سـرعة الضوء، إنّهم جبارين ولاشك.

- لا تخف، احفظ توازنك؟

أرسل إشارة تنبيء عن استلامه الذبذبة الأولى، وأكّد:

- من أنتم؟

- أصدقاء ستكون بعد قليل في ضيافتنا.

نصف نهار مر، فبدأت سرعة مركبته تنخفض، ثمّ توقّفت أمام إحدى المحطات، عندئذ وصل أمر بالمغادرة، سحب نفسًا عميقًا واطمأن إلى سير الأحداث الغامضة، وهو يتمتم مع نفسه:"على الأقل لم أتعرض إلى ضرر حتّى هذه اللحظة"، كان في مكان يشبه امتزاج قوس قزح، فيما يشبه الحلم، تطالعه من زوايا عجيبة أقرب في الشكل إلى الكوة، تطالعه مواقع لوحدات لونية منفردة التقسيم، كالموسـيقى الهادئـة، شكل هرمي مثقوب أزرق، عن بُعد شرائح ضونية تُشبه الأسـماك، كان يُبصر الألوان ولا يعرف ما في داخلها، وهنـاك بنايـة مـدورة يطوف حولها ضوء منقسم إلى أشكال تُشبه بني آدم، كانـت هنـاك محطات مختلفة الأشكال، كلّ منها بلون مميز، ووجد نفسه يتبع إشارة تقوده إلى بناية عجيبة المنظر، بيضاويّة الشكل، الداخل إليها لابدّ أن يمر بمستطيل من تمازج الألوان حيث يتم تعقيم بدلته وجسده خوفـا من أن يكون حاملاً من الأرض لجرثومة ما، بقي لحظات تحت شلال الضوء، واستمرّ المستطيل اللونيّ يتمازج حول جسده إلى أن أشارت إليه لوحة أن يتقدم، راحت الأضواء تسير، كان علـى مرمـى مـن

خطواته ضوء محزز تندمج ألوانه على شكل كهف، وبدا ضوء آخــر كسنّ منخور يتربع في مقبرة ضوئيّة لم يدرك كنهها، فزادت هواجسه استغرابًا "هل مت حقا؟".

بعد لحظات؛ قطع الرواق حول بقعة الضوء، ثم اتجهت به الإشــارة الدالة إلى بهو صغير، فاجتازت البقعة عند أرضية صقيلة حيث انتهت إلى حجرة واسعة، تجلت فيها مفاجأة لم يتوقعها أبدًا، خوف ما هــزّ جسده، فاستقطبت فكره حقيقة أنه مازال حيًا، الموتى لا يخافون، لكنه شيء لا يمكن أن يُصدق بمقاييسنا نحن أهل الأرض! وهتف:

- أصدّقت أنك مازلت حيًا؟

- أظنكم لستم جبارين؟

إنسان مثلنا بالضبط من حيث الهيئة، الجسد كلــه إنســان، اليــدان القدمان، الطول، الاختلاف في الرأس فقط، قاموس الفضاء لا يحوي كلمة محال، لا عجب أن نعثر على غرائب أو تعثر علينا غرائب تبعث فينا الدهشة، التي توحي إلينا أننا موتى، مثلما يجري له الآن، فيجد نفسه أمام إنسان له رأس بعيد عن التدوير، قريب من المثلث، وعينان مثلثتان أيضًا، لقد صَعُبَ عليه أن يتبين ملامح الوجه الغريب، كيــف يشيخ ويهرم؟ كل شيء مبهم، الذكاء، العبقرية، مفردات عندنا نحــن أهل الأرض، بعيد لماح عميق وقاد كلها مفردات لا تكفي، كل خبرتنا وملاحظاتنا عن وجوهنا فقط، وبيوت نسكنها من آجــر وأســمنت أو طين، نحن بعيدون عن مساكن الضوء، أيقن أنه يقف أمام مخلــوق راق، ويواجه عقليّة استطاعت أن تحرره من السرعة العادية لتدخله

في عالم سرمدي، لا يعتريه زوال، في دقائق أصبح كونًا كاملاً مُحدب الشكل، ثم في دقائق عاد إلى ما كان عليه..

- نحن أصدقاء وأنا مدير المحطة.

قال الغريب عبارته ليبعث الطمأنينة في نفس الساكن الأرضيّ:

- لم أعرف بعد من أنتم.

- لكننا نعرفكم جيدًا، ونعرف كوكبكم.

- قلتم إنكم أصدقاء.

فأكد الغريب:

- وهدفنا مساعدتكم أنتم أهل الأرض.

- يعني قولك أني لستُ مختطفًا من قبلكم؟

- كلا أبدًا.

- ضمن أيّ عمل تفسر وضعي الآن؟

- اسمع ياسيدي، أنت الآن في محطتنا الفضائية، التي تبعد عن كوكبكم ثلاثمائة سنة ضوئيّة، وقد فعلنا ما تراه بنصف يوم أرضيّ فقط.

وبعد أن اطمأن قليلاً قال بهدوء:

- كنت أدرك أني أسير بسرعة غير عاديّة.

فجاء الصوت الآخر ممازحًا:

- أنت تعرف الأهرام القديمة عندكم على الأرض.

- بالتأكيد! بالتأكيد..

قال عبارته بثقة هذه المرة فواصل الغريب:

- هناك فتحة تشرق منها الشمس دائمًا، ولا تغيب عنها في أي يوم من السنة، إنها الشكل البدائي للتلاعب بالزمن.

في هذه الأثناء أشار ذو الوجه الغريب بيده إلى جهة ما فتحرك جدار الضوء أمام عيني ع. ب، ليشكل فتحة أطل منها على هرم بنفسجي، يلوح من بعيد وسط السماء القاتمة السوداء، وقال الغريب:

- انظر إلى هناك، هذا الهرم محطة لضغط الزمن.

- الزمن المضغوط؟

- نعم الزمن المضغوط، في هذه المحطة نستطيع أن نتحرر من التحدب الكوني، حين نسير أسرع من الضوء لنختصر المسافة من ملايين السنين الضوئية إلى أيام عادية، لقد أحطنا بمركبتك وبجسدك لكي لا تتحول إلى تقعر كوني، زمنًا مضغوطًا، فنقلناك إلى هنا، إنها عملية تشبه كتابة رواية تصور أحداثًا طويلة بعدة صفحات، وربّما هي الشكل البدائي للزمن المضغوط الذي توقف عنده صانعو الهرم أو كُتّاب الروايات الطويلة.

ازدادت حيرته وهتف:

- لابد أن قصدًا ما دفعكم لهذا الفعل.

- بالتأكيد، وأرجو أن تسمعني جيدًا.

- لكن دعني أقول لك إنّ ما يجري على الأرض وفي محيط فضائها تحت مراقبة جبارين.

فأطلق ساكن الفضاء قهقهة أشبه بالصرير القادم من واد بعيد:

- لا تهتم، فقد احتطنا للأمر.

- إذن أنا مصغ إليك.

- إذا كنت متعبًا وغير قادر على التركيز تستطيع أن تغفو قليلاً.

- أبدًا أنا في راحة تامة، وما يلوح عليّ مجرّد دهشة وانفعال.

- حسنًا سأشرح لك كل شيء بالتفصيل."توقف يتطلـــع فـــي وجـــه ضيفه لحظة وواصل":

- نحن من كوكب "مختارين"، أمّة متطوّرة عشرة أضعاف تطوّر أمّة جبارين، أما كوكبنا فيبعد عن كوكبكم ألف سنة ضـــوئية، يمكـــن أن نختصرها بآلاتنا إلى شهر من شهوركم، ولدينا أجزاء واســـعة مـــن الفضاء تحت تصرفنا، أرضكم شأنها شأن كثير من الكواكـــب تحـــت رقابتنا، وكنتم تحت بصرنا حين داهمكم أهل جبارين فاستأنا لما فعلوه بكم.

فخرج عن طوره منفعلاً:

- مع ذلك لم تتدخلوا.

- لا تتعجل، نحن أمة لا تحركها العواطف والانفعالات، لكني لا أخفيك كنا ننوي أن نبعث مراكب فضائية تذيع فيكم عرضـــنا، ثـــم التقطنـــا إشارتك فكفيت علينا مهمة التوجه إليكم.

قال هذه المرة بانشراح:

- يعني أنكم جاهزون لمساعدتنا؟

- أكرر لا تتعجل، نعرفك عالمًا صبورًا، كنا نراقبك في كتاب الفضاء، ونطلع على اختراعاتك التي تنبيء عن ذكاء ما، مقارنة بقومك أهـــل الأرض، فمركبة مثل التي صنعت يمكن أن يخترع مثلهـــا أطفالنـــا،

وكثيرًا ما يتلاعب المراهقون عندنا بالضوء حول أرضكم فتظنونها أطباقًا طائرة، أتذكر ذلك؟

- يسعدني أن أسمع منك ذلك، وأنا متأكد من أن سكان الأرض يسرهم جدًا أن تكونوا أصدقاءهم وحلفاءهم.

- كل شيء يجب أن يسير بهدوء، هذه هي خطتنا.

بعد تردد:

- أهناك من شروط؟

- نحن قليلو النفوس ثمّ إنّ طعامنا يختلف عن طعام جبارين الذي هو نفس طعامكم.

- إذًا ما الذي ترومونه منا بالضبط؟

- طبعا أنتم لا يسعدكم أن يحتكر جبارين كل واردات الأرض الزراعية، تخيل المستقبل؛ إنهم الآن يكتفون بما تقدمونه لهم، لكنهم أمّة ذوو أعمار طويلة، وعبر سنوات سوف يجدونكم خدمًا منافسين لهم، فقد يستولون مباشرة على إعمار الأرض وزراعتها، أما أنتم.. أما شرطنا.

- شرط أيضًا؟! قال مقاطعا، قرار الأرض ليس بيدي.

عاد ذو الرأس المثلث إلى القهقهة:

- مهمتك هي التبليغ عن لساننا.

- ما الذي سوف أقوله؟

- أشياء لا تتعلق بالطعام قط، إنّ كوكبنا يخلو تمامًا من معادن ثمينة أعني التي تسمونها بلاتين ذهب فضة، أنتم لا تستفيدون منها فوائد ذات بال، هي للزينة عندكم ليس إلاّ، أما نحن فقد أخذنا نماذج قليلة

منها وأجرينا عليها تجارب فكانت مفتاح السرّ لدينا والخطوة الأولى في السيطرة على الكون والتغلب على سرعة الضوء، أما أن تبقى عندكم فنخشى أن تقع ذات يوم بيد مثل جبارين، فيكونوا هم سادة الكون!

- أعرف الآن أن شروطكم هي حيازة معادن الأرض النفيسة؟

- نعم! كان بإمكاننا أن نفعل فعل جبارين منذ زمن، لكن طبيعتنا في التعامل مع الكواكب تختلف عنهم، فنحن لا نميل إلى أسلوب التهديد والوعيد في البداية.

- تعرف أن كل أجوائنا وتحركاتنا فضلاً عن محادثاتنا مكشوفة لسكان جبارين، ما يقوله ذوو الشأن في كوكبنا خلال اجتماعاتهم وربما أحاديثنا نحن الناس العاديين، فكيف..

فقاطع رجل الفضاء:

- مثلما جلبناك إلى هنا دون أن يعرفوا، تستطيع الأرض أن تلتقط أنفاسها إلى حين أيضًا.

وربت على كتفه مؤكدا فبدا كما خدر لطيف يجتاح منكبه:

سنعطل جميع أجهزتهم.

لم يكن أمام العالم "ع. ب" أيّ اختيار سوى تبليغ الرسالة الجديدة، يحمل عبودية جديدة إلى الأرض، في طريق العودة تجاذبته أفكار متباينة، هواجس ومخاوف، سكان الأرض تخلصوا بانصرافهم إلى الزراعة من مآس كثيرة، دفنوا أحقادًا ونوايا قديمة لكي يصبحوا من دون عواطف وأحاسيس، فهل يعود أهل الأرض إلى الحروب

والمشاكل والفتن؟ الأرض تكاد تكون دولة واحدة فكيف يصبحون في العهد الجديد.

بغضّ النظر عن هواجسه المتشائمة الحزينة تلك، وبعيدًا عن العواطف المرهفة، فإنه اقتنع بالحل الثاني، وجده الأفضل، وبدا راضيًا تمامًا، لترجع الحروب والأحقاد، لتعد المشاحنات، المهم أن يُصبح بنو آدم أحرارًا من جديد في عرض جديد لا يمكن أن يرفضوه قط، وسواء اقتنعت الأرض أم لا فإنّ أهل مختارين قادمون لا محالة، وليكن ما يكون مادام هناك ليس من خيار!

بعد أقل من يوم، هبطت المركبة في جنيف عند مقر الأمم المتحدة، في الوقت نفسه؛ فرضت أجهزة مختارين حجبًا للتنصت والمراقبة والتصوير الفوق إلكتروني والفوق نيوتروني، حيث بدت الحركة طبيعية على الأرض، لا تثير أيّ شك عند سكان الفضاء، بينما طلبت الأمم المتحدة من الرؤساء والملوك وذوي الشأن اللقاء لطارىء فضائيّ جديد..

ومثلما سلّموا في الاجتماع الأول بعد غزو الجبارين لكوكب الأرض، رضخوا للطلب الجديد، وناشدوا الاقتصاديين والمختصين بشؤون المال أن يجدوا معدنًا آخر مُعادلاً للعملة الصعبة، بدلاً من معدن الذهب، وهي مشكلة ليست بهينة قط! فربما تعود الأرض إلى مبدأ التعامل بالسلع كما كانت عليها عهودها الأولى قبل أن تُكتشفَ النقود بزمن طويل! إنه مجرد احتمال، المهم أن أهل الأرض تحدثوا عن

مصيرهم دون أن يسمعهم سكان جبارين، وكانت هناك حرب شرسة لا قِبَلَ لأهل الأرض بها، حرب متطورة فوق ما يتصوره الخيال، فيها سحقَ كوكب مختارين قوة فوق الإلكترون والنترون التابعتين لكوكب جبارين.

خلال المعركة بقي العالم "ع.ب" في جنيف يتابع الأحـداث، وعقـب انتهاء الحرب مباشرة استلم إشارة ضوئيّة احتوت على مطلب موجه إلى سكان الأرض، في أن يجمعوا كلّ المعادن النفيسة والحلي مـن الأسواق والبيوت والأفراد وقصور الرؤسـاء والملـوك والسـلاطين والأثرياء، وآخر يتضمن خرائط وتصاميم لمناجم البلاتـين والـذهب والفضة والألماس غير المكتشفة، وبعض المعـادن الأخـرى تحـت الأرض المجهولة لبني البشر، الألماس ومعادن أخـرى لكـنهم لـم يذكروا اسم الألماس والمعادن المخفية عنا من قبل.

تساءل بصمت، وهَمَّ أن يبعث إشـارة يُـدرج فيهـا استفسـاره أو اعتراضه، ثم تردد وأعرض تمامًا عن الفكرة وهو يسخر في سـره من لا شيء أو كلّ شيء! وتشكلت لجان على الأرض لجمع المعـادن النفيسة من الأفراد والمؤسسات، كان أهـل الأرض سـعداء لأنهـم اشتروا الحرية بالمال، فعادت إلـيهم زراعـتهم وحـدهم، انتعشـت الصناعة من جديد واقفرت أراضٍ كانت مزروعة، وتصحرت أخـرى وعادت الخروقات ومشاكل الحدود والتهبت الحروب الأهلية وأعمـال العنف، مع ذلك كان أهل الأرض سعداء بما حققوه، على الرغم مـن

رجوعهم إلى المشاكل من جديد، وعودة الحروب، وسقوط أعداد من الجرحى والقتلى.

شخص واحد كان يشعر بالحزن، بدا أكثر حرصًا من غيره كأنّ الفرح يقض مضجعه مثلما هو الحزن يؤنيه، هذا الشخص هو "ع. ب" الذي لم يغتر بالشهرة والمكانة التي احتلها، كان حزينًا لأنـــه أدرك وهـــو يخترق الفضاء في جولاته المألوفة، أنّ سكان الأرض يحتلون نيـــل القائمة الكونية من حيث التطور والحضارة، بالمقارنـــة مـــع ســـكان الفضاء الآخرين البعيدين عنا، أما سكان مختارين فلم يعودوا ليخاطبوا الأرض بعد أن أخذوا منها معادنها النفيسة، وكأنّهم نسوها تمامًا..

كان يستقل مركبته الفضائية ويخترق الفضاء، فيرسل إشارات كونية تحمل الحبّ والمعرفة والسلام باتجاهات مختلفة، لكن ليس هناك من مجيب!!

كوبنهاغن ١٩٩١

الحاوية

- ادخل ادخل!

لا أتذكر أنّي رأيت من قبل تلك الحاوية المستديرة المدببة الرأس، المطليّة بصبغ قديم، التي لا تتجاوز مساحتها بضعة أمتار.. إذ حالما مررتُ بمحاذاتها حثّني ذلك الصوت، ليل وضباب ولفحة برد يقشعرّ لها كتفاي، إنها تبدو لمن يراها عادية تمامًا، قديمة مثل أيّة حاوية تربض على الرصيف تفتح شدقها المدوّر لتبتلع الصحف والأوراق الفائضة عن الحاجة، أو أن تكون إدارة البلديّة أو شركة نفايات تركتها على الرصيف لأمر ما، لكنّي لا يمكن أن أقول إنّ المصادفة وحدها هي التي دفعتني إلى هذا المكان، ربّما لو مرّ أي عابر غيري في هذه الليلة ذات الضباب لسمع الصوت نفسه، ولقام بالدور ذاته الذي أديته فيما بعد.

- ادخل.. ادخل.

لم يكن الصوت وحده، كانت هناك قوّة غامضة، دائرة مغناطيسيّة تلتقطني، تشدّ رجليّ، تجذبهما، وذهني مشغول بالصوت الذي أخذ يلحّ، شغفتني نغمته الغريبة التي لم أسمع مثلها من قبل لأتأكد تمامًا أنّ شخصًا ما في الداخل، رجلاً كان أم امرأة يدعوني للدخول.. يطلب مساعدتي، كان عنف الحقل المغناطيسي غير المؤلم يزداد عند رجليّ وقوّة الجذب حولي تطغى بجبروت هائل، مثل أيّ سباح ماهر يقع فريسة لدوامة مسعورة، وعندما تراجعت قدماي أمام القوة تلك أيقنت أنّي كنتُ عاجزًا تمامًا حتى عن الكلام، وقتها انفرج مصراع لباب جانبيّ، ولاحت هوّة عميقة كمرايا لا قرار لها، فدلفت في آخر لحظة

من غير أن أطلق أيّ صوت، كان المصراع يهبط إلى وضعه السابق، وبدأتُ ألتقط أنفاسي.

لم يلفح عينيّ ظلام دامس، بل عمق لا متناهي الأطراف، خلاء لا قرار له، هذه البقعة الصغيرة الملقاة على الرصيف تمددت من الداخل لتلتهم الفضاء كله، أجواء مفتوحة بلون متراقص، شلال ضوء، موج بنفسجيّ، أزرق، ليلكيّ كالماء الدافيء وقت الصقيع، شعرتُ أنّ الشلال غسل جسدي كله، وقد ظلّ هناك هاجس من الخوف يساورني، وخيط من القلق يربض على أنفاسي.

لم أر أحدًا حتى الآن.

كانت بقعة الضوء المتراقصة تحول بيني وبين الرؤيا، ازداد خوفي وغمرتني مشاعر متضاربة، أين أنا يا ترى؟ حقل أخضر، أفق لا نهائي، صحراء أشجار، هل يُعقل أن تكون الحاوية المهملة على الرصيف بهذا العمق الشاسع؟ قد أكون في لحظة ما صغرت من حيث لا أدري، صغرت جدًا فرأيت الأفق الواسع والغابات الممتدّة والصحراء المفتوحة كما نملة أو أميبيا يحتويها كون هائل بحجم متر واحد، وقفت لحظات كان ثمّ صمت، الصوت توقف وأحاطني سكون شامل زادني قلقًا وعزلة، وعندما هممتُ أن أتراجع إلى الخلف والإفلات من حيث أتيت راحت القوّة تشدني، فتنبثق أمامي ألوان زاهية لا متناهية حيث عجزتُ عن الالتفات والعودة، كنتُ حر الحركة لأيّ اتجاه كان اليمين.. الشمال.. الأمام.. ما عدا أن أرتدّ أو ألتفت.

- لا تخف!

صوت ينبثق من وراء الألوان، يتكرر فلا أميزه بعد:

- أنت في مكان أمين، لا تخف، لكن لا تلتفت!

ما هذه الحاوية المهملة الصغيرة من الخارج، اللامتناهية الحدود من الداخل، أهو عامل الحظ أم المصادفة اللذان لا أؤمن بهما دفعاني إليها، فيحثني الخوف والقلق إلى الزعيق:

- أين أنا؟

لا أسمع لزعيقي أيّة رنّة في الخارج، كأنّ أذنيّ لم تستوعباه مع ذلك أواصل الصراخ:

- أين أنا؟

- كيف دخلت؟

- من هنا؟ هل يسمعني أحد؟

- من معي؟

أدركت أنّي وقعتُ في فخ، لم تكن تلك حاوية أو برجًا صغيرًا مهملاً، وعرفتُ أنّي أستطيع أن أتحرك في كلّ الاتجاهات العملاقة الواضحة أمامي، لعلني أقدر في لحظة ما على اكتشاف أيّ منفذ آخر أستطيع المرور عبره والإفلات من تلك القبضة الواسعة.

هكذا سارت الأمور، ووجدت أنّي أملك كونًا واسعًا يمتّد مسافات مجهولة.. أمامي غابات وأنهار وزرع، فيض من الخير كثير، هذا الكون لي وحدي أنا سيده المطلق لا أحد يشاركني فيه، أنا والألوان فقط، أدركت أنّي لم أتحدث خلال تلك اللحظات أو الأعوام أو القرون

التي مشيتها، لست متأكدًا من عامل الزمن هذه المرّة، لكنّي أحبّ أن أتكلم لكي أثبت أنّي لست مثل الخليّة الواحدة، التي ترى السنتيمتر الواحد كونًا كبيرًا فتلتذ بما حولها، بالتأكيد أكون جعت فقطفت من ثمار الغابة وتحركت فمشيت في الصحراء، ونهلت من بعض الأنهار، لكنّي لم أعثر على أيّة نهاية تكمن في الأمام، حيث أظلّ سائرًا طوال الوقت من دون إحساس بليل أو نهار، لا شروق وغروب بل أبصر المشاهد من خلال ألوان أبدية لا أستبين مصدرها، أظنني ربحت كونًا كاملاً وخسرت الكلام، فراودتني رغبة في ألا أكون سيد كون هائل وحدي، توغل فيّ هاجس متناثر من حزن وخوف وقلق وسأم دفعني لأتحدث بصوت عال:

- أين أنا؟
- هل من أحد يسمعني؟
- هل هناك من أحد؟ ميت أم حيّ؟

وانزاح بعد أن التقطت أنفاسي ستار من الضوء المخمليّ البنفسجي فتراجعت الصحراء والغابات والأنهار وانكشف عنها أمامي وجه ليس غريبًا عنّي شخص يشبهني، خفّ قلقي بعض الشيء وانزاح عن صدري ثقل ما، هل يُعقل أن أكون - خلال دقائق أو أيام - سيد كون ما، لم أعرفه من قبل، لا أظنني متّ فانتقلت إلى عالم آخر، لكني آكل وأنام وأتجول في الغابة والصحراء، أتحدث مع نفسي ولا أكلم أحدًا، كما في حلم لذيذ أبصر طيورًا وحيوانات قريبة مني، وأشجارًا فلا أخاف، وفي هذا الكون الرائع المحتشد الألوان يصارعني قلق وخوف، وحدي

ومن قبل دخلت حاويةً فلا أقدر أن ألتفت أو أرجع إلى الوراء، ما أجمل الألوان وأروعها وما أشدَّ قوّتها التي تمنعني من العودة، مثل أبي آدم بالضبط لم يقبل أن يكون وحده سيدًا لكون مترامي الأطــراف، فهــل أقف الموقف ذاته في هذه اللحظة؟.

كانت الألوان تنزاح عن صورة ما ثمّ تتكشف أشدّ وضــوحًا، وشــيئًا فشيئًا رأيت حائطًا شفافًا انطبعت فوقه صورة شخص يكاد يكون نسخةً مني، أخي التوأم الشقيق، خوفي انحسر تمامًا، تلاشى، انقضى قلقي، هناك شخص ما في المكان ذاته لا يهمّ أن يكون شبيهي أم لا، وحالما رأيته وسكن خوفي، اندفعت في السؤال:

- أين أنا؟

حرك الآخر شبيهي شفتيه وقال بهدوء مثل أيّ شريط سينمائي ينطق أفراده بحركة بطيئة:

- أنت في البرج الحاوية.

- أعرف لكن هل يمكنني أن أخرج إلى الأرض؟

- ستعود بالتأكيد.

قلتُ فرحًا كطفل يفقد لعبته ثمّ يجدها:

- متى؟

قال الذي أشبهه أو يشبهني:

- ستعرف في حينه.

قلتُ محاولاً المغالطة أو ربّما العبث:

- أعدك وعد شرف - كنتُ طبعًا كاذبًا أو مرائيًا - أعدك أن أرجـــع مجرد أن أقضي بعض حوائجي.

- محال محال الآن؟

- ألا تثق بي؟

- ليست مسألة ثقة أو شكّ إنك الآن تبعد عن الأرض مئات الآلاف من الكيلومترات!

إذا أنا ميت ولا عودة إلى الأرض، أما الصورة التي رأيتها عند الحائط فما هي إلا روحي التي فارقت جسدي تيقنت من ذلك وخامرني إحباط، برزت صورة القبر أمامي ولاح لعينيّ ملَكُ الموت، ما هذه إلا مقدمة لحساب عسير، لم تكن تلك حاوية بل شركًا وقعت فيه ففقدت الحياة، وها أنا أجول في غابات وصحاري وأشرب ماء عذبًا فلا أحتاج إلـــى ماء وغسل ولا وجع في جسدي، فانتفضت هاتفًا:

- ميت أنا ميت!

تسلط عليّ ضوء متماوج أزاح قلقي وغضبي، وعـــاد الرجـــل إلـــى حديثه السابق:

- أؤكد لك أنك لستُ ميتًا وسوف تعود إلى الأرض في أقرب فرصة.

قال عبارته تلك بسرعة اعتيادية غير مبالغ فيها، كما ألفته من كلامه السابق، وشيئًا فشيئًا تلاشت الصورة من أمامي وكانت موجات الغضب والقلق تعتريني، فتمسحها شلالات من ضوء متباين فأحس لســـعاتها اللذيذة قبل أن أنفجر في غضب عارم أو بكاء طويل.

لا أدري كم مرّ على وجودي في الحاوية من وقـت حـين التقطـت أنفاسي، فاختفت في أقلّ من لحظات تلك المشاهد الخلاّبة، انحسـرت الصحراء إلى نقطة ما، وتلاشت الغابات إلى جهـة لا أتمكـن مـن رؤيتها، وجدتني في مكان ضيق ذي جدران أربعة، انتشر فيه ضوء مألوف حالما انحسرت شلالات الألوان وستائر الضوء الخلاّبة، كـلّ شيء أصبح واضحا وغامضا، قد أكون مررتُ بغيبوبة أو حلم بغيض، أوقظني منه صوت عرفت فيه صوت شبيهي:

- استعدّ الآن للخروج!

انفرج الباب الذي دخلت منه، ووجدت نفسي في دهليـز.. خطـواتي ترنحتْ في حين عادت الأنوار تتراقص حولي وتُحدد مساري داخـل الأنبوب، لأخرج من حاوية إلى أنبوب إلى حيث لا أدري تحيطني هالات الضوء، إذا كان هذا هو الموت فلمَ يخشاه الأحياء؟ ويبدو أني بـدأت أستعيد توازني، فأتجه نحو مبنى ذي باب، هناك على بُعد خطوات مني تشخص غرفة، أقف عند بابها ثم ينفرج مصراع، والصـوت ذاتـه يأمرني:

- ادخل!

عند الباب تتفتت الأضواء ثانية تتراجع مثل كائن حـيّ، المخلوقـات الشفافة التي أذهبت عني القلق والخوف تركتني وحدي، هنـا فـي الغرفة الرائعة التي تعجز عيناي عن أن تحيطا بما فيها، كنت أقـف أمام أشياء عجيبة لا أفهمها، أدوات وزوايا، مربعات، سقف الغرفـة الهرميّ الشكل، عالم أقرب إلى دنيا الأرواح منه إلى عالم الأجسام، هنا

يمكنني أن أتحول إلى مربع أو مستطيل أو دائرة من غير أن أحس بالألم، ومن غير أن أهشّم جسمي، شعرت أنّي يمكن أن أنقلب إلى أيّ شكل كان، وهنا في هذه الغرفة على بُعد خطوات منّي في زاوية تكاد تحتلّ مكانًا منعزلاً، وجدته أمامي لا تفصله عنّي سوى منضدة صغيرة، الصورة التي أطلّت عليّ في الحاوية، الوجه وجهي والشكل شكلي، إنّه شبيهي! شيء رائع أليس كذلك؟ لا يميّزه عنّي سوى أنّه جاف الملامح كإنسان آليّ، لا يمكن أن تقرأ على وجهه أيّ تعبير:

- أيّة روعة ولنا لم أفهم بعد أيّ شيء.

- في البدء أود أن أعتذر إليك عن سوء اللبس الذي سببناه لك.

- يا سيدي إنّ القلق يظلّ يراودني مادمت أواجه أمرًا غامضًا يعجز عقلي عن تصوّره.

- سأوفر عليك الجهد!

وقبل أن يواصل، لاحظتُ أنّه يتطلع بين الحين والآخر إلى شيء ما في سقف الممرّ لم أتبينه، أدركتُ أنّه يقرأ لغتي على شكل رسم ثمّ ينطقها متتبعًا صورتها، ممّا أوحى لي أنّه ينهج سلوك الرجل الآليّ في قراءة الحروف والأصوات:

- أقول لك باختصار إننا أمّة متطوّرة بشكل هائل نتقدّم عليكم في كلّ شيء تمامًا، نسبقكم في حقل العلم بقرون كثيرة، ما بيننا وبينكم قفزات واسعة، ومن حقّنا بعد هذا أن نستطلع الكون الممتدّ أمامنا..

قاطعتُ متعجلاً لكي أطمئنّ:

- إذا لستُ أسيرًا أو مختطفًا ولستم أعداء الأرض.

أبدًا نحن سكان كوكب ترونه من بعيد، ليس بالضــرورة أن تكونــوا أطلقتم اسمًا على كوكبنا، فهناك الكثير من الكواكب تركتموها من غير أسماء، لكنك ستكون سعيدًا حين تعود إلى الأرض وترى في الليــالي المقمرة الصافية كوكبنا اللامع ذا الوميض الأخاذ من هناك.

أشاعت كلمته السرور في نفسي، الأرض ثانية العودة، لا يهمني أين أهبط في أي مكان، صحراء كان أم حقلاً في أيّة قارة حتى لو هبطت في سيبيريا، مرض الحنين إلى الأرض، للمرّة الأولى أحس أن الأرض ملكي وأنّي لا أنتسب إلى أيّ بلد كان، أيّام معدودة قضيتها بعيدًا عنها وفي نفسي هياج جامح إليها.

- يا سيدي متى أعود؟

- قبل أن أخبرك متى أودّ أن أضيف أنّ من حقنا أن نفحص الكــون مثلما تفحصون أنتم الأرض والفضاء في مجموعتكم الشمسيّة..

- لكن يا سيدي أنا لستُ عالمًا، أنا إنسان عاديّ!

- لا يهمّ، فبعد قراءة سكان الأرض قراءة شاملةً واسعةً من الناحية النظريّة، أرسلنا محطة اقتربت منكم ثمّ انفصل عنها المكــوك الــذي تسميه أنت الحاوية البرج، فتمّ نقلك إلى الفضاء لتكون ضيفًا لبضعة أيّام عندنا حيث نجري عليك بعض الاختبارات بصــفتك عينــة مــن الجنس البشريّ أرقى المخلوقات على الأرض، فأنتم أول مخلوقــات تشبهنا من حيث الشكل عثرنا عليها في هذا الكون.

خيبة أمل تصيبني وشعور بالضآلة، فأحاول التماسك:

- هل الدافع علمي بحت؟ وأرجو أن تعذرني عن هذا التطفل!

- نحن لا نهتم إلاّ بالعلم ولا يجمعنا بكم إلاّ الشكل فقط.

قلتُ متحمسًا:

- لكن من حقّي أن أعرف لِمَ وقّع الاختيار عليّ أنا بالذات؟

فتمعّن في وجهي برهةً من غير أن أدرك من قسماته أيّة علامة سخط أو رضا:

- يمكن أن تنسب الأمر إلى الحظ وحده، فأنا حين كنت أسوح في الفضاء بالقرب من كوكبكم وقتها رحت أوجّه عدسات مقربة نحوكم، ومن بين عدّة وجوه عثرتُ على نفسي هناك، صورة طبق الأصل لي، وأظن أنك ستكون سعيدًا حين تجد شخصًا يشبهك من سكان الفضاء البعيد.

- الحظ وحده وليست المصادفة، لو كنت أنا عثرت عليك في الفضاء لقلت إنك تشبهني، أمّا المرّة الوحيدة التي تواضعنا فيها نحن المكتشفين، فحدثت حين عثرنا على قرد قلنا نحن نشبهه..

- وفق أساس الشبه اخترتني.

- ألا يسعدك أن تكون منقى من الجراثيم، وتشعر بالسعادة وأنت في أتم الصحة وتعيش على الأرض عمرًا أطول.

ذكّرني كلامه بالأضواء وتراقصها حولي، كلّ آلام جسدي اختفت حتى خِلتُ نفسي ميتًا في عالم آخر:

- يا سيدي من حقّي أن أعرف ماذا حدث لي لاسيما أنكم أمّة راقية، ومن واجبك العلميّ أن تطلعني على كلّ ما حدث لي خلال تلك الرحلة.

- بالتأكيد.. حين وقع اختياري عليك كونك تشبهني، اضطررتُ إلى توفير الأجواء الملائمة لك في الحاوية البرج، ولم يكن ذلك بالإمكان لو أبقينا على حجمك كما هو، لقد غسلناك بالضوء المُطهر، وكنت طوال الرحلة تأكل وتشرب فتتبخر النفايات من جسدك، كان حجمك أيضًا خاضعًا للتغيير، أصبحتَ لا تُرى بالعين المجرّدة أشبه بما تسمّونه بكتريا أو فيروس، كل ذلك تم بتسليط شعاع ضاغط، متحاشين في الوقت نفسه تدمير خلاياك وتهشيم جسدك أو تغيير دمك، فبدأت ترى الحاوية كونًا واسعًا مترامي الأطراف.

فأر في مختبر، أنبوبة، تحوّلت إلى جرثومة، جنين في سائل منوي، وكنتُ محتفظًا بشكلي، فصرختُ محتدًا:

- كنتم تعاملونني مثل أيّ.. أيّ..

عجزتُ عن النطق تمامًا، فقال ببروده المعتاد:

- من حقّنا أن نُجري تجاربنا العلميّة على أيّة ظاهرة كونيّة نعثر عليها لكي نسير في تقدمنا العلمي، وهو ما كنتم تفعلونه أنفسكم، مثلما منحتم أنفسكم الحق في إجراء تجارب على الحيوانات أو على بعضكم، فلم يكن بإمكاني أن أنقلك إلى كوكبنا لو تعاملت معك تعاملاً مثاليًا، مع ذلك سوف نُثبت لك حسن نوايانا.

كان صادقًا في كل كلمة قالها ولم أخف في هذه المرة، المرّة الأولى جعلتني التجربة مميزًا عن سكّان الأرض، أحمدُ الحظ الذي جعل لي شبيهًا في الفضاء اختارني فطرد الدرن من جسدي، سوف أراقبُ الأرض، أشهدُ أجيالاً تنقرض، أعيش مائة عام، مائتين من دون أن

أعاني المرض، سأكون مثل سكان الكوكب.. هل عليّ أن أطلق عليه اسمًا ما.. لا يهم، كانوا أناسًا طيبين، لم أحتك بهم أو أعاشــرهم، لا يختلفون عنّا، يشبهوننا تمامًا، كنتُ أسير بينهم فأسمعهم يتحــدثون ويتحاورون، لا أعرف لغتهم لقد بدت لي شفاههم تتحرك وكأنهم آلات من لحم ودم.. غير أني لم أرهم يضحكون أو يبكون، قسماتهم واحدة، وجوه مختلفة لا غضب أو فرح، لا دهشة، لا قلق، هــؤلاء ســكان الكوكب الذي لا تعنيني تسميته، وربما أطلق عليه في يوم ما اسمي.. بشر مثلنا جعلهم العلم طويلي الأعمار، لعلّ هناك شــعورًا بــالتفوق يخامرنا نحن البشر، لم نقبل وجود كائنات في الفضاء تُشبهنا فرسمنا لها أشكالاً غريبة.. رؤس مثلثة.. آذان طويلة.. عيون خماسية، لقد جعلنا من الكون مسخرة لنا، وحولّنا الفضاء إلى نكتة، كل هذا لنثبت لأنفسنا أننا أجمل مخلوقات الله، كنا نظنّ أننا تغلبنا على كلّ شيء ما عدا لغز الموت، ثم أدركتُ أنهم يموتون من طول العمر بلا علــة أو مرض ويخضعون لسنّة الكون مثلنا، سوف أبقى طويلاً لا أشكو مــن علة أو مرض قبل أن أعود إلى رحــم الأرض، جســدي مشــحون بمضادات البكتريا والجراثيم، وقبل أن أودّع مضيفي ذا القسمات الباردة راودتني ابتسامة ماكرة، الأمر الذي جعله يتمعن في لوحة الســيطرة ويسألني: هل من أمر؟.

أطال النظر في وجهي ومازلتُ عاجزًا عن معرفة ما إذا كان سلوكي أزعجه أم لا، هل أقول له إنّ وجهه هو - وجهي الأخر - هــو الــذي يُضحكني؟ أتخيّل نفسي الآن فأبدو عاجزًا عن فهم صورتي الأخرى،

وجهي المنفي في عمقي الذي ظهر لي فجأة هو شقيقي الروبـوت؛ شيء غريب! ثمّ يلتفت إليّ بعد أن يستدير عن اللوحة، ويقول بنغمة تكاد تكون مميزة هذه المرّة:

- لا عليك تستطيع أن تقول ما يخطر ببالك!

- قبل مئات السنين ظنناكم آلهة، عبدناكم، لأنكم كنتم تتدخلون فـي شؤوننا الصغيرة والكبيرة، الحظ، طول الحياة، الحرب، ثـمّ نكتشـف أنكم أمّة مثلنا، أمّة راقية تحكمت بالضوء وألجمت المرض، تستطيع أن تساعدنا في حلّ مشاكلنا وتبسيطها وليس تعقيدها، بعد كلّ هذا ألا يحقّ لي أن أسخر؟

- منّا أم منكم؟

فاتني أن أنتبه إلى تغيّر طفيف في لهجته:

- ربما منا فقط أو من الاثنين، أمّا منكم فقط فهذا غير جائز.

وربما قطب ما بين حاجبيه كمن يستفهم ولم أكن متأكدًا من ذلك:

- أتظنّ ذلك؟

خيّل إليّ أنّه خرج بعض الشيء عن إطار الوجه الآليّ الذي قـابلني به أوّل مرّة، إذ لم أكن حينـذاك أسـتوعب ملامحـه الجديـدة؛ لأنّ أحاسيسيّ وجوارحي كانت منهمكةً بفرحة العودة إلى كوكـب الأرض مرّة أخرى، لحظتها كنتُ أظنّ أنّ رحلتي انتهت، لقـد أجـروا علـيّ تجارب بصفتي ممثلاً لجينات البشر، أمّا مـا سـوف يفعلونـه فـي المستقبل فهذا من خصوصيّاتهم، لكنّي وجدتُ الحاوية تشخص أمامي ثانية وصوت يهتف: - ادخل ادخل..

ربّما هي العودة إلى نقطة البداية، هناك بعد أن رجعت إلى حجم البكتريا وتسيدت كونًا مترامي الأطراف، بعد كل ذلك وجدته هناك، شبيهي، توأمي الكونيّ بالضبط كأنّه أنا أو أنا هو، انفعال حزين، أو قلق على وجهه، لست أحلم أستطيع أن أحسّ ذلك من قسمات وجهه فما بين رحلتي الأولى والثانية فرق شاسع:

- أسمع هناك شيء ما لم ندركه بعد!

قاطعت متعجلاً شأني كلّ مرّة:

- أستطيع أن أحسّ شيئًا ما لكنّي لا أعرف ما هو بالضبط.

فقال متأففا:

- كارثة، وأكد شبه مزمجر، إنها حقًا كارثة من نوع ما!

استوقفني وقع الكلمة:

- هل أنا السبب في ذلك؟

- نعم، أنت ولو اخترت عينة بشريّة أخرى لكان يمكن أن تقع الكارثة أيضًا.

- يا سيديّ أنتم تعرفون عنّا كلّ شيء ونحن نجهل ما تعرفونه.

ربّما عاد إلى الهدوء، ولعلّ كلمتي الأخيرة أشاعت في نفسه روح الألفة والونام:

- لقد وقعنا في خطأ رهيب، طهرناك من جميع الأمراض، قتلنا فيك الجراثيم ومنحناك حماية من الأمراض المنتشرة على أرضكم، جنبناك السل الطاعون الجدري، نقص المناعة الزكام السرطان، وحميناك من خرف الشيخوخة، جميع الأمراض.. جميعها من دون حصر!

- فعلاً حين هبطت ثانية على الأرض وجدت جسمي خفيفـا كـأنني مخلوق من جديد.. حقًا أحسستُ بقوة غير عاديّة، لكن ما الخطأ في ذلك، أتعني أنها مسألة أخلاقية، قد تطول أعمارنا فتكثر بيننا الحروب ولعلّ موارد الأرض لا تكفي، تستطيعون أن تفرضوا علينا شـروطكم لنستفيد من اختراعاتكم فتعـيش الأرض بسـلام، وبـذلك تكونـون ألزمتمونا بمبدأ أخلاقي مقابل مساعدتكم الرائعة لنا.

قال متأففا وهو يتمعّن عميقًا في وجهي فتخرج سماته عن انطباعها الآلي:

- المشكلة إنك حملت إلينا أمورًا غريبة قد تكون جراثيم أو فيروسات لا يمكن حصرها بأشكال ماديّة، إنها عدوى لا تخضع للمحسوسات لقد ظهرت على سكان كوكبنا أعراض لأشياء مجهولة لنا، غريبة عنا لم نكن نعرفها في الكون، مظاهر تسمّونها أنتم القلق الخـوف الوفـاء الحبّ الحزن الفرح الغضب، مفردات غير موجـودة فـي قاموسـنا، وأمراض مستعصية على العلاج، وقفتْ أدق آلاتنا العلميّة المتطـوّرة عاجزة عن فك ألغازها.

كنت أقف أمامه وقفة المنتصر! هذا الرجل العالِم الذي حـولني إلـى حقل تجارب، صغّر حجمي كيف يشاء ومثلما أراد، وأنعم علي بفضاء مترامي الأطراف، أدركتُ سر تجهّمه، واجهتني لحظة زهو وأنا أجـد وجهه يحمر من الغضب والحزن، أنا الآن بعيد عـن الأرض، لسـتُ خائفًا، للمرّة الأولى أواجه الفضاء بشجاعة، لا أنكـر أنـي شـعرت بالضآلة والصغار حين عرفت تلاعب سكان الفضاء بي، إحساس فأر

في المختبر أمام عالم يقرر مصيره، غير أنّ قوّة ما هائلة انبثقت من أعماقي وترددت بين المتناقضات من راحة وغضب وقلـق وأمـان وفرح وحزن، هذه القوّة المنبثقة استطاعت أن ترسم ملامحي وملامح أهل الأرض جميعهم على سكان الفضاء والكون كله، قد يضحك سكان الأرض فيظنون أنّي واسع الخيال أتحدثُ كثيرًا عن حوادث مرّت بـي في الوهم، أحلام يقظة، غير أنّي متأكد هذه المرّة مـن إحساسـي، مجموعة من البشر المترفعين وضـعتْ الجـنس البشـريّ أفضـل مخلوقات الله في الكون داخل أنبوبة اختبـار، ربمـا تكـون الأرض جميعها ذات يوم حقل اختبار لتجاربهم، في الماضـي البعيـد ظـنّهم أجدادنا يتحكمون بحظوظ الأرض وأرزاقها، وها هـم الآن يسـلطون تجاربهم على كوكبنا، هؤلاء المترفعون عن السفاسف تمعنـوا فـي وجهي من دون مبالاة، كانوا ينظرون إلى وجوه بني آدم كلهـم فـيّ أنا، كم مليار يسكن الأرض؟ ذلك حزّ في نفسـي كثيـرًا، أبصـرتهم فاعترتني دهشة واقتحمني استغراب، كائنات غير مخيفة باردة لا طعم لها، شوارع الكوكب الجميل البارد مثل شوارعنا أرصفتهم كأرصفتنا، دنيا تشبه الجنّة التي حلمتُ بها لكنّها مكان بارد ينقصه انفعال ما، إنه كأيّ جسد جميل لامرأة رائعة الجمال ميتة تتزيّن بجواهر ثمينة، يبدو أنهم يفكرون بعمق ويتأملون لكنهم لا يتألمون، وحين ألفتُ وجوههم وزال عنّي الخوف والرعب، أدركتُ وأنا بيـنهم، أنّ هـذا الفضـاء المترامي الأطراف ما هو إلاّ قبر مظلم عندها راودني حنين جارف إلى الأرض لم يقتصر على بلدي، بل لجميع أهل الأرض الـذين أحـبّهم

وأكرههم، لأشكالهم المختلفة، لألوانهم ولغاتهم، للشجار والخصــام، والفرح والحزن، كانت أعماقي تردد وأنا أسير بين حشد الناس الآليين ما أجمل الأرض، على الرغم من المآسي والمشاكل فيها، على الرغم من المجاعات والفيضانات والبراكين والزلازل وأسلحة الدمار، أمّا الآن وبعد أن اطلعت على كلّ شيء، وأدركت أنّي طبَعــتُ فـــي الفضـــاء وسكانه المتفوقين علينا بعض ملامح الأرض، فيمكنني أن أتعامل مع هؤلاء معاملة الندّ للندّ، قلتُ بثقة، وأنا اقترب منه وأربت على كتفه مواسيًا:

- ما الذي يمكن أن أفعله؟

- سنضعك في المختبر فنجري عليك تجارب أخرى، لعلنا نجد علاجًا ناجحًا لفكّ تلك الرموز الغريبة في جسدك!

كتمتُ سخرية في أعماقي متفاديًا أن أجرح مشاعره، سيضعني فـــي المختبر لكنه في الواقع سوف يضع نفسه ليُجــري عليهـــا تجــارب مزعومة، لا أريد أن أسخر منه كما حدث في المرّة السابقة حين كان خاويًا من المشاعر بل أحاول أن أتفادى أيّ مشهد يجرح كبريــاءه، أصبح يضحك ويبكي ويحزن ويغضب، أو يفرح يتأفف ويطلق حسرة ويضجر كل ذلك بفضل عدوى مبهمة انتقلت إليه مني، ليس ببعيد أن يقتل وهناك احتمال أن تندلع مشاكل بين سكان ذلك الكوكب الجميل، شيء خطير لست مسؤولاً عنه وهو خارج عن قدرتي، في البدء لـــم يكن يميزنا عنهم سوى الانفعال والإحساس، الآن أصبح الكون المعتّم البارد الساكن يرتج بالفرح والحزن والبكاء والابتسام، لم أخسر معهم،

سوف أضع إمكاناتي تحت تصرّفهم ليجروا عليّ تجاربهم، كنت متيقنًا تمامًا من أنهم لن يجدوا قط علاجًا للضحك والبكاء ومن دون تـردد هتفت:

- أنا جاهز ياسيديّ

قلتُ عبارتي وأنا أتمعن بوجهه المتجهّم الحزين لحظتها لم أكن لأفكر متى أعود إلى الأرض كما حدث لي في المرّة السابقة كنتُ متأكدًا أنّ أحاسيسي المتمثلة بالحزن والفرح والغضب والحب والكره بدأت تغزو الفضاء وتنطبع على الكواكب، وليس بمقدور أية قوة مهما عظمت من إيقافها، وسواء عدت أم لم أعد فقد تمكنت من نقـل ملامـح الأرض كلها إلى الكون الواسع إذ أصبح كله ملكي!
حقًا كنتُ سعيدًا بذلك!

نوتنغهام – ٢٠٠٧/٧/١٣

قصة من عام ٢٧٨٤

كان يتعامل مع الحلم وكأنه واقع سوف يحدث فيما بعد، فليس أمامه إلا أن يثني الضوء ثانية، من أجل أن يتحقق بدقة من الخبر القديم الجديد الذي اكتشفه أستاذه يوم ولادته، وأوكل إليه مهمة البحث فيه فيما بعد كي يُدرك من خلال التجربة الضوئية الجديدة أعماق المستقبل فيقرأ حوادثه وهي تمر أمامه بالتفصيل.

البروفيسور "رشاد" يضع لوحة المقياس أمامه، فيمعن النظر في أحلامه وهو مولود ذو سبعة أشهر، طفل خديج وضع في الحاضنة وثمت الدكتور "إقبال" الذي راح يترجم عبر جهاز يتصل برأس الخديج ما يرد من إشارات تنم عنها الأحلام، كانت نظرية الدكتور "رشاد" تذهب إلى أن جفن العين في حال النوم يمثل مرشحًا ومنصفًا للضوء، عندها تتحلل الموجة إلى أبعادها المستقبلية، وكلما كان الترشيح والتنصيف أقل كان الحلم أكثر وضوحًا وأبعد عن الغموض.

هذه الفكرة اقتنع بها وهو في سن العشرين عندما انتسب إلى الجامعة وناقش باهتمام آراء أستاذه الدكتور "إقبال" الذي راقب أحلامه وهو طفل في الحاضنة، كان هناك اختلاف جوهري بين وجهة نظر يتبناها باحث حديث وأستاذ خبير لا يؤمن أساسًا بنظرية الترشيح والتنصيف بل يؤكد دائمًا أن الحلم يكون واضحًا إذا تعرض فرد ما لكمية ضوء طوال اليوم أكثر مما يحتاجها جسمه قبل النوم، لكن أهم شيء فعله الدكتور "إقبال" قبل وفاته هو أن سلم تلميذه "رشادا" لوحة أحلامه من يوم ولادته إلى آخر حلم له.

كان هناك حلم ما يتردد على اللوحة أكثر من غيره، ولم يكن بإمكان جهاز التحليل أن يدركه بل كان يحوله دائمًا إلى قسم الأضغاث، وتجسد الحلم في دائرة كبيرة جدًا بحجم التفاحة تستقر في أعلى اللوحة تقابلها دائرة صغيرة بقدر البذرة، الدائرة الكبيرة تتحرك باتجاه الصغيرة حتى تصل إلى مسافة أبعد من النصف عندئذٍ تتحرك الدائرتان كل منهما باتجاه الأخرى، فتتناثران في الفراغ.

وسأل البروفيسور "رشاد" أستاذه وهو يشير إلى الدائرتين:

- سيدي إني أسأل نفسي دائمًا لِمَ حولت هذا الحلم المبهم إلى قسم الأضغاث.

فقال الدكتور بلهجة الواثق من نفسه:

- الأحلام يا عزيزي انعكاس للواقع، يُشخصه العقل الباطن، وطفل حديث الولادة مثلك يكون انتقل من رحم الأم ذي الظلمة، إلى العالم الخارجي المتمثل بغرفة ولادة يملؤها الضوء، ولو أنك قارنت حجم الرحم بحجم الغرفة لوجدت ذلك الفرق بين التفاحة والبذرة وهو أول واقع واجهته وأنت تُطِلُ على العالم!

لم يقتنع قط بتعليل أستاذه الذي يُمثل المنهج الطلائعي، ويتمسك بكل منجز حققه في هذا المجال ويعده حقائق لا تقبل الجدل، في الوقت نفسه كان يثق بتجربته الجديدة في الضوء، التي جاهد أن تكون خاصة به حتى يتأكد من نجاحها فيذيع أسرارها فيما بعد، والحق إنه لم ينف نظرية سابقة ترى أن الأحلام جميعها انعكاس للواقع فالطريق العلمي الجديد الذي سلكه لا يُنكر أن معظم الأحلام انعكاس للواقع أي

الماضي والحاضر، لكن بعضها يمكن أن يكون انعكاسًا لوعي السماء ذلك ما يمكن أن يطلق عليه اكتشاف المستقبل!

ربما يبدو من المحال تحقيق المعرفة تلك من دون أن نغير في شكل الضوء ذلك الخط المستقيم فالكون وهو سبب وجودنا بيضوي الشكل، الضوء عايش المستقبل قبلنا بملايين السنين.. الشعاع القادم إلى عيني من نجم مات قبل مليون سنة، ألا يعرفني حين يخترق جفني وأنا نائم؟ ألا يحمل إليّ خبرًا سارًا أو إشارة تحذير؟ كيف أفهمه وهو مستقيم وأنا بهذه الصورة وكلانا يحتويه كون بيضوي الشكل؟

أسئلة كثيرة راودت ذهنه ودفعته إلى أن يقرأ رسالة السماء من خلال تغيير شكل الضوء فيوحد بينه وبين شكل الكون على الأقل كي نعرف ما يدور حولنا بعد سنوات، وأول ما فعله في تجاربه ثني الضوء تدريجيًا في حلقة تُشبه القوس وتسليطه على النائم المستسلم للحلم، تسليط حزمة ضوء مستقيمة على نائم ثم تحديب تلك الحزمة بجزء من المائة مليون، في المرة الأولى رأى النائم أشبه بالحفرة، مجرى، ساقية جافة ذات بريق، وفي المرة الثانية بزيادة طفيفة كانت هناك حفرة وبرفع نسبة التحديب قليلاً وجد النائم نفسه يسير في شارع وهو شارد الذهن مشغول الفكر وبعد بضعة أمتار قابلته حفرة تركها عمال الهاتف على الرصيف فزلت قدمه وهوى فيها.

بعد أقل من شهر علم أن طالب التجربة هوى في حفرة على الرصيف وفقد حياته، وجاءت التجربة الثانية لتزيل الشك من نفسه وتثبت

صحة أبحاثه، ووسع من تحدب الضوء على متطوع آخر شاهد في الحلم وجه امرأة وطفل.. ثلاثة منفصلون لا تربطهم رابطة ما وكلما اتسع التحديب اتضح الثلاثة أكثر، المتطوع.. المرأة.. الطفل، ثم مر عام وإذا بالمتطوع يتزوج من امرأة مطلقة ذات طفل من زوجها الأول، هذا هو السر الخفي الذي غاب عنه ساعة رأى الصغير يقف جانب الأم ولم يكن ليتخذ مكانه بينهما وقد ظن من قبل أن الحلم ينبيء عن زواج ثم ولادة طفل في المستقبل هو نفسه طفل الصورة.

اقتنع البروفيسور "رشاد" أن الأحلام التي يعكسها الواقع من خلال الظلام والضوء المباشر غير المحدب قد تتحقق أو تخيب وربما تكون أضغاثا، أما أحلام الضوء المحدب فكلها تنبيء عن المستقبل بصورة دقيقة وكلما زدنا في التحديب جزءا من مئات الملايين ذهب الحلم أبعد وعرفنا ما يحدث بعد آلاف السنين، إنها إشارات السماء وانعكاس للعالم العلوي ذي الاسرار!

هنا كان عليه أن يعود إلى حلمه، طفل خديج ذو سبعة أشهر حلم بعد ولادته بدائرتين كبيرة وصغيرة، أما أستاذه الدكتور "إقبال"، فهو لا يقدر حينذاك أن يقدم أكثر مما قدم من اكتشاف وإبداع في الطب وعلم النفس وقف عند هذا الحد واقتنع بما وصل إليه، والبروفيسور "رشاد" وفق التجربتين السابقتين، وتجارب أخرى، استخدم فيهما التحديب، اقتنع تماما أن حلمه لم يحدث بعد ولادته في الحافظة بل في الرحم البيضوي الشكل ولابد أن يكون هناك ضوء ما تسلل إليه عبر الأشعة وتوافق مع بيضوية مكانه، فتكيف الشعاع للمكان وسلمه

رسالة مبهمة فخرج قبل وقته وبقي الحلم في دماغه محتفظا بطراوته وسطوعه إلى ما بعد الولادة، حتى التقطته لوحة الخبير الدكتور "إقبال" الذي ألقاه في مجموعة الأضغاث.

وإذا كان لابد من أن يدرك الحلم واقعًا سماويًا يخص المستقبل، فسيكون حريًا به أن يربط بين منهجه الجديد وولادته والرقم ٧ المقدس عند الماضين، فهو شريك الماضين من حيث ولادته السباعية وتصوره يبحث عن وشائج خفية بين الرقم والمكان والزمن، من ذلك المنظور أراد أن ينسخ حلمه على نفسه ثم يجريه في عقل متطوع آخر، وفضّل أن ترافقه رئيسة الممرضات في مكتبه بدلاً من أي طبيب آخر.

وفي اليوم نفسه قبل أن يأوي إلى فراشه طلب من الممرضة أن تبقى معه في غرفة شبيهة بالحاضنة الزجاجية، كان قد أعد كل شيء؛ خزانة الأحلام والحلم الأول على ألواح التسجيل، جهاز تحديب الضوء، ثم طلب منها أن تُسلط على دماغه حالما يوغل في النوم صورة الحلم الأول المخزون في لوحة الأضغاث ترافقها موجات من الضوء ثم تضغط على أزرار بارزة فيزداد بالتدريج تحدب الضوء المسلط عليه.

وها هو للمرة الأولى يكتشف سر الحلم من دون أن تفقه الممرضة أي شيء عن تجربته الجديدة، عرف أنه كان على صواب حين فضل أن ترافقه رئيسة الممرضات في مكتبه بدلاً من أن يختار أي زميل له

لأنها ليس بإمكانها أن تناقشه أو تكتشف عماذا يبحث، وكــان بــالغ الحرص على أن يبقى كشفه الجديد في موضع سر وكتمان قبــل أن يتأكد من نجاحه الأخير.

لقد رأى صورًا لأناس سقطوا في حفر أو تزوجوا وآخرين ذهبوا إلى حرب وتحقق من أزمات اقتصادية وكوارث واغتيــالات ومــؤامرات، كانت الأرض مرآة تعكس صورة السماء، كل ذلــك رآه فــي عقــول الآخرين وشاهده على الأرض أو سمع به، أما ما شاهده من مستقبل محصور في دماغه فهو شيء فظيع بعث الرعب في نفســه، ولكــي يقطع الشك باليقين فإنه سلط حلمه على متطوع آخر، ثم راح يطبــع نسخة الحلم ويجربها على أكثر من متطوع، فتأتي النتيجة واحــدة لا غبار عليها.

البرفيسور "رشاد" ولد عام ١٩٧٧، نزل من بطن أمه فــي الشــهر السابع، تتجمع لدينا ثلاث سبعات، نحن الآن في عام ٢٠٠٧، نجمع وفق تحدب الضوء الأرقام ٢٠٠٧ + ٧٧٧ = ٢٧٨٤، في البدء دخل الشعاع الرحم بتقعر قليل يمثل جزء من مائة مليون بالمليون، فرسم صورتين لكرتين واحدة كبيرة والأخرى صغيرة، ثم تحركت الكبيــرة باتجاه الصغيرة من الأعلى، حتى وصلت إلى نقطــة بــدأت عنــدها الصغيرة بالتحرك، إلى هنا ينتهي الحلم الغريــب، وحــين اســتيقظ انكشفت له ملامح الحلم الذي نسخه في عقول آخرين فوصفوه لــه كما رآه ثم ثبت أحد الأزرار على سنة ٢٧٨٤، وغذّا المخزون بضوء وصل به التحدب إلى مقدار هذه السنة، كان يقفز من فراشه هلعــا،

فما حدث أمام عينيه لابد أنه جرى لآخرين طبّق عليهم تجربته، إلى الحد الذي جعل رئيسة الممرضات تهرع إليه، وتسأله عما إذا كـان يروم أن يوقف عمل الجهاز.

لم تكن تلك كرة كبيرة في الأعلى، بل كان كوكبًا كبيرًا، أما تلك التي تشبه البذرة فهي أرضنا، كان ذلك الكوكب يتجه ضـالاً فلكـه نحـو أرضنا، حتى وصل إلى مسافة بدأت عندها قوة جاذبيته تشد الأرض وتزعزعها عن مسارها فتحركت نحوه.. أخيرًا حدث الاصطدام العظيم وأصبح الكوكبان مجرد شظايا تتناثر في الفضاء.

وفق تلك التجربة تيقن البروفيسور "رشاد" أن المستقبل ضوء ملموم يصل إلينا بشكل أشعة كونية مستقيمة فإذا ما طوعنا الشعاع الضوئي لقاعدة التحدب الكونية بعثرنا كروموسومات المستقبل، فبـدت لنـا واضحة صريحة، كانت التجربة واضحة على الـرغم مـن طبيعتهـا المعقدة، وأصبح البرفيسور "رشاد" نفسه لا يشك فيها قـط، سـبعة قرون تفصلنا عن النكبة وقتها سوف تنتهي الحضارة ونصبح كلنـا، الأموات والأحياء، شظايا تتيه في فراغ وظلام، راح يستعرض صور المتطوعين الذين خضعوا لتجربة الحلم الزمن، إنه هو الماضي يعيـد ذاته في المستقبل، هناك من حلمـوا بـالكوارث فحلّـت ومـن رأوا أنفسهم يموتون فماتوا أو يعيشون بسلام وماز الوا على صلة به، مع ذلك رفض أن يضع نفسه في تجربة يقرأ عبرها أيامه القادمة وماذا يواجهه، هو على قناعة تامة في أن يظل محايدًا مثل المصور الـذي يلتقط صورًا لأسد يطارد في الغابة غزالاً ونمور تحاصـر فرائسـها،

مهمته لا تعدو التصوير والتطلع، وربما الفضول، لأنه لو تدخل كي يمنع كارثة أو ينقذ شخصًا من هلاك لكان قد أعلن الحرب على القدر نفسه، وهو بهذا الفعل يُعد الخاسر الأكبر في هذه المعركة غير المتكافئة منذ البدء.

تلك المخاوف دفعته إلى أن يلغي كل تجربة بهذا الصدد، حتى أنه أعرض تمامًا عن معرفة الطريقة التي ينتهي بها هو نفسه ذات يوم وشغله مصير محتوم ينتظر الأرض بعد سبعة قرون، لو نشر ما رآه لاتُهِمَ بلوثة، ولساءت سمعته وربما رجمه الآخرون، هل يُنقذ الأرض وهو يعيش عليها قبل سبعة قرون من موتها؟ سؤال وحيد استحوذ على تفكيره، كان يأمل في أن تصل البشرية خلال تلك القرون السبعة إلى حضارة راقية تُمكّنها من تفادي الكارثة، عبر ما تملكه من مخترعات جديدة، ولم يكن أمامه بُد من أن يسجل تحذيره بأدق التفاصيل العلمية، ثم يتوجه إلى مركز الودائع ويوصي ألا يُفتح ملفه إلا بعد مرور قرن من تاريخ وفاته، كان على يقين تام من أن البشر بعد قرن سوف يتقبلون تحذيره لينقذوا الأرض من دمار آت في المستقبل البعيد.

مدن الضـــوء

كل ما عليه أن يترك الملف الكبير أمامه ويخلد للراحة بضعة أيام في منزله الريفي، بهذه الطريقة فكر البروفيسور "ك"، والحق إن ملف الحالات الغريبة التي ظهرت مؤخرًا كان يستحوذ على جلّ تفكيره، هذا الملف الذي يمكن أن يظل مفتوحًا لاستقبال حالات أخرى غريبة، لم يشاهد تلك العوارض بعينيه، في الوقت نفسه أثبتت الفحوصات المخبرية الدقيقة أن هؤلاء المرضى سليمو البنية أصحاء الأجساد، واستبعد أن يكونوا مرضى وهم، فما من مرض وهم مزعوم يُداهم عشرات المُتعَبين والمُحبطين بالدرجة ذاتها، فيتفقوا على أن يقدّموا وصفًا واحدًا له، على الرغم من أنهم لم يلتقوا من قبل، أو يعرف أحدهم الآخر، رجفة كما يدعي الجميع شعور بالعدوانية هياج وصراخ ثم هدوء وسكينة تامين.

لقد انتبه البروفيسور "ك" إلى أن جميع مرضاه من سكان القرى، ومن المفترض أن تظهر الحالة - إن صح ادعاء مرضاه – في المدينة المزدحمة، حيث الصخب والضجيج، إذ لم تسجل حالة واحدة لمريض من المدينة إلى الآن، لا يريد أن يستبق الأحداث فيتهم مرضاه بالقلق ومرض الوهم، فيحيلهم إلى زميله وتلميذه الطبيب النفساني الدكتور" ن"، الذي اشترك معه في كثير من التجارب العلمية، لذلك فكر بالخلود إلى الراحة قبل أن يخطو مثل هذه الخطوة الجريئة، إن اقناع مريض واحد من قِبَل جراح مشهور كالدكتور"ك" باللجوء إلى طبيب نفساني، يتطلب روية وجهدًا كبيرًا، فغالبية المرضى يفضلون أن يكونوا مصابين بمرض عضوي، على أن

يتهمهم الطبيب بالهلوسة، كيف إذًا وهو يقف أمام أكثر من مريض، كلهم يعانون من مرض واحد، والملف لما يغلق بعد بانتظار حـــالات أخرى، لذلك كله صمم أن يترك الملف جانبًـــا ويـــأوي إلـــى منزلـــه الريفي؛ ليستعيد بعض نشاطه لعله يجد حلاً لهذا اللغـــز المستعصـــي الغريب!

كان بيته الريفيّ أشبه بالمنتجع المنعزل، منزل ورثـــه عـــن أبويـــه، وكثيرًا ما آوى إليه في حالات التعب أو حين تواجهه مشكلةً ما لينعم بالهدوء والراحة، فيستعيد ذكريات طفولته وصباه ويتذكر كل ماضيه، غرفته التي يرقد فيها الآن، النافذة.. ليالي الصيف الساحرة، والدتـــه وهي تغطيه ليالي الخريف، وتُغلق النافذة بإحكام ثم تســـدل الســـتارة السميكة لكي لا يصاب بالبرد أو تخيفه العواصف والرعد، كما تقول، أو وهي تزيح في بعض ليالي الصيف الصافية الستارة ليداعب ضوء النجوم والقمر عينيه، كان المنزل يبعد عن مركز القرية مسافة بضعة كيلومترات حيث يبدو هو وبعض البيوت، عند سفح التلة المشـــرفة على الحقول الواسعة والغابة القريبة أشبه بالعيون التي تطـــل منهـــا القرية على الفضاء الخارجي الواسع البعيد، إلى درجة أنه كثيرًا مـــا كان يضيق ذرعًا بظلام قريتهم الدامس بخاصة ليالي الشتاء الطويلة غير أن انزعاجه لم يتحول قط في يوم ما إلى خوف.

كان ذهنه مشغولاً بذكريات الطفولة، التي تلاشت قبل أن يغفو أمـــام الحالة الجديدة الغريبة التي أبت إلا أن تفرض حضورها عليه حيثمـــا حل، فيصبح العالم كله في إطارها مصابًا بالوهم، مـــن الممكـــن أن

يشكو مريض ما من ألم غير حقيقي في يده، وآخر يتصور وجعًا في رجله وثالث يتألم من مكان مجهول، أما أن يتفق الجميع على حالـة واحدة لا يجد لها أساسًا في أي من تحاليله وفحوصاته والأعداد فـي ازدياد، فربما يعني ذلك أن العالم كله بعد سـنوات سـوف يصـاب بالوهم!

تلك الليلة ذات الجو الخريفي البارد أسدل الستائر الكثيفة، وبدأ جفناه يسترخيان للنوم بعد حال من التفكير والتأمل الطويل.. لكن أمرًا مـا حدث له بصورة مفاجئة حالما انطبق جفناه واستسلم لنـوم عميـق هادىء.. فجأة شعر بشيء ما يهزه هزات عنيفة، جلده يتنمل، أنفاسه تضيق تتهدج، وإحساس غريب يدفعه إلى أن يدمر كل ما يعثر عليه في طريقه، إنسانًا كان أم أي شيء آخر في هذه اللحظة الغريبة رأى كل المشاهد تثيره وتستفزّه وما عليه إلا أن يلجأ للعنف، كانت أشبه بنوبة عصابية تجتاح جسده، أما عيناه فلم تبصرا شيئًا وسط الظلمة سوى أنه تعثّر بالمنضدة الصغيرة جوار سريره، فصب عليهـا جـام غضبه، وركلها بقسوة وهو يتلمس طريقه نحو البـاب حيـث الـزر الكهربائي.

ثم في أقل من لحظة إذ غمره الضوء المنبثق من المصباح عاد إلـى هدوئه السابق، تنفس الصعداء كأن شيئًا لم يكن، إنها الأعراض ذاتها التي يُعاني منها مرضاه، فهل أصيب بالعدوى منهم، وأية عدوى ولا أحد منهم مصاب بمرض عضويّ، لعله كابوس، جلس علـى حافـة السرير يتأمل، ووضع احتمالات مختلفة تراوحت بين عامل المصادفة

التي جعلته يعاني من أعراض أصابت مرضاه، وحلم بغيض أو كابوس، ورجع به تأمله إلى عصر اليوم وهو يزاول المشي في طريق القرية وطعام العشاء لعله يجد علاقة وسببًا بين كل ما سبق؛ والكابوس البغيض الذي أيقظه من النوم، ولم يتحرر منه إلا حين أنار المصباح، وحين حصر ذهنه فيما قبل لحظات الكابوس وجد أنه حلم من قبل حلمًا لذيذًا. وجد نفسه يسير في الغابة القريبة، أطلت روحه على جو ساحر دافيء، فقادته قدماه إلى الساحل، كانت قريته بعيدة عن البحر، أما الغابة فتُحانيها جبال عالية، ليس هناك من منفذ نحو الماء سوى عبور سلسة الجبال وذلك يتطلب وقتًا طويلاً، ثم وهو ينظر إلى السماء وجد الشمس تميل إلى الغروب، انساب قرصها القاني رويدًا رويدًا في الماء، أشبه بوجه شاحب ذي ظفائر ذهبية يبتسم له قبل أن يغطس في البحر، في الوقت نفسه شعر بتنمل يجتاح جسده، شيئًا فشيئًا كدبيب النمل يصعد الخدر من رجليه المغمورتين بالماء! كانت تلك اللحظة قبل أن يهجم عليه الكابوس بكل ثقله القاسي.

لم يمر وقت طويل على الكابوس الأول؛ إذ ايقظه من نوم لذيذ حلم آخر عنيف، له وقع الكابوس الأول حيث راودته الأعراض الأولى من تهدج وضيق في النفس وعدوانية حادة تجاه أيّ شيء، وفي المرة الثالثة أيقن أنها ليست المصادفة، وليس ما ينتابه من حالة غريبة يمكن أن يطلق عليه كابوسًا بغيضًا، بل هو شبح ما أو مخلوق من

عالم الخفاء يقبض على الجسد ويربض على الأنفاس، ولا يهرب إلا حين يفاجئه الضوء.

بعد الكابوس الثاني مباشرة، وهو يقبع داخل النور المعتم، حصر ذاكرته لعله يجد أي رابط بينها، تذكّر أنه منذ زمن لم يستقل أيّة حافلة، وعند الصباح وهو لمّا يزل في المدينة، ذهب ماشيًا إلى السوق المركزي الضخم، واجتاز قبل أن يصل الزحمة موقف الحافلات حيث انحل خيط حذائه فانحنى لحظات ليربطه، قبل الكابوس الثاني نعم بحلم لذيذ، كان يستقل حافلة كادت تغص بالركاب، الوقت ظهرًا، الحر يلهب الأنفاس، فجأة انتقلت الشمس من الظهيرة إلى الزوال، هرول من الحافلة يحاول اللحاق بها، فوجد نفسه عند النهر يبحث في الماء عن صورة الشمس، ظل يُبصر وود لو تطاله يده ليغسل وجهه ورجليه فيطرد الدبيب الذي بدأ يسري في جسده من قدميه، ثم انتبه إلى مصابيح الشارع وهي تُنير المكان حالما انزوت الشمس خلف الجبال، فداهمه الكابوس الثقيل.

لا يشك أنه الآن أمام حالة معقدة ربما انتقلت إليه من المرضى زوّار عيادته، أو لعل العالم بدأ يعود إلى زمن الأساطير والأشباح والقوى الخفية، التي تحدث عنها أجدادنا قبل قرون بعيدة، لابدّ أن يسبق الكابوس حلم لذيذ يُشعره بالدفء وغروب الشمس، يعقبها قدوم الجنيّ أو المارد مُكبلاً الجسد بثقل مرعب، قابضًا بيده على العنق، واضعًا ركبتيه الثقيلتين على الضلوع، فيهرش جسده كمدمن، فهل

تسبق كوابيس مرضاه أحلام لذيذة تتجسد في مشهد منسوخ بطريقة ما لما فعلوه وقت العصر قبل حلول الكابوس؟

بدا أمام افتراضاته مثل طالب الطب المبتديء، الذي تشابكت عليه العقد والأمراض، فيلتمس طريقه بيأس كي يقع على بصيص يوصله إلى سبب المرض الحقيقيّ، بعد أن تأكد من سلامة جسده، أدرك أنه أمام حالة غريبة بعيدة عن أن تكون مرضًا عضويًا، أما مرضاه فلعلهم أيضًا عاشوا أحلامًا لذيذة قبل اجتياح الكوابيس والأشباح غرفهم، ربما لم يلاحظوا أن هناك أحلامًا رائعة تسبق الكوابيس الأشباح، والحق أنه وجد صعوبة في إقناعهم بالرجوع إلى طبيب نفساني، لكنه وجد من اللائق أن يسبقهم ويقر بمرض يسمى الوهم، يعانيه وهو في حالة نوم، مرض يربض على صدره ويقبض على أنفاسه فيدفعه إلى العنف، قبل حلول النور يجد أن شيئًا ما ينقصه هو مخير بين نوبة تشبه الصرع أو مرض الرقص وإدمان على شيء ما، وما دام يعرف نفسه جيدًا فلا يجد حرجًا في الاتصال بتلميذه السابق، وزميله في بعض الأبحاث الدكتور "ن" عالم النفس الشهير، قد يكون في بعض المواد التي نتاولها مخدر ما لكن لم تظهر النتائج في أثناء النوم؟ وقد يكون مرض وراثي مخفيّ بدأ يتحرك الآن! كل افتراض يحتمل الخطأ والصواب ما دمنا لم نصل إلى حل بعد!

أما رأي عالم النفس الشهير الدكتور "ن"؛ وهو تلميذ البروفيسور "ك" وزميله في المستشفى حيث يعمل، فقد ذهب إلى أنها حالة نفسية عابرة، ربما يكون مصدرها عقل باطن يؤطره حلم عميق، يتعلق

بالطفولة وذكريات بعيدة، يختزنها هذا المنزل الريفي القديم، ومع أن رأي الدكتور "ن" بدا مُقنعًا لأيّ مريض آخر، إلا أن البروفيسور رسم حوله أكثر من علامة استفهام، لمَ يُعاني مــن أعــراض مرضــاه؟، المرضى كانوا من مختلف الأعمار، هل هي حالة صرع؟ كيف ظهرت الآن خلال زيارته البيت الريفي؟ لمَ يختفي الشبح الذي يقبض علــى صدري حالما أشعل الضوء؟ أسئلة كثيرة وافتراضات يضعها الدكتور "ك" أمام الطبيب النفساني، أما الدكتور "ن" الذي لم يراوده الشك بعد طول تأمل؛ في أن أستاذه البروفيسور بدأ يعاني بسبب الكبر والعمــل المضني، من حالات عصبية، قد تؤدي به إلى حالة هستيرية، فأخفى علامة امتعاض كادت تلوح على وجهه، ليتفق الاثنان علــى زيــارة المنزل الريفي، فينعما بالراحة لبضعة أيام هناك، وكان هدف الدكتور "ن" أن يثبت هواجسه التي راحت تحوم فــي فكــره عــن أســتاذه البروفيسور، ولم يجد الجرأة الكافية ليواجهه بها.

في تلك الليلة بقي البروفيسور "ك" يقظًا، احتســى بعــض القهــوة، وغالب النوم، واكتشف للمرة الأولى أن زميله الدكتور " ن" يشــخر عاليًا في أثناء نومه، لكنه لم يعرض عليه أن يستخدم جهاز قيــاس الذبذبات إي إي ج، والحق إنّ لديه شكًا غير مؤكد من أن شيئًا مــا سيحدث خلال عملية النوم العميق وفترة نشاطات العين خلال حركتها السريعة أر إي أم.. فجأة حدث مثلما توقع، تهدجت أنفــاس النــائم وارتعش عدة رعشات تصلب جسده وقفز من نومه محاولاً أن ينتقم من كل شيء يعثر فيه، ظلّ يهرش جسده أشبه بمدمن مُنع فجأة عنه

المخدر، دفعته وسط العتمة حالة للانتقام من زميله البروفيسور الذي وقف عند الزر الكهربائي وأخذ يتطلع بوجه زميله المرعب:

- هكذا كنت البارحة ويبدو أنني لم ألتفت إلى شكوكي.

خلال أقل من لحظات بعد انطلاق النور عاد "ن" إلى وضعه الطبيعي، وهو يتساءل:

- ماذا حدث لي؟

- بالضبط ما حدث لي عدة مرات،"ثم انبرى متسائلاً"، تذكّر هل كنت تحلم حلماً جميلاً قبل مداهمة الكابوس؟

لم يكن زميله البروفيسور يعاني؛ وفق توقعاته الأولى، من تعب نفساني أو خرف الشيخوخة، إذ كاد ينسى ذلك الحلم اللذيذ الذي غمره مثل نسيم منعش وهو في نومه العميق، رأى أنه يهرول باتجاه قرص ما، شيء مدوّر، كرة قدم.. الكرة الطائرة، وعصر ذلك اليوم قبل أن يلتحق بالبروفيسور شدّته باهتمام مباراة لكرة التنس، نُقلتْ مباشرة عبر القناة الفضائية، بدت الكرة كبيرة وهو يتابعها وحين اقترب منها أدرك أنها الشمس التي راحت تنحسر نحو المغيب، واصل الركض باتجاهها متسلقا تلاً ما، ثم هابطا منحدر سهل، على يقين من أنه يقدر أن يلحق بها وهي تنط أمامه تصغر ككرة التنس والمنضدة، وتكبر فيصير لها جسد غزالة، وجهها فقط قرص أحمر، أخيرًا خانته رجلاه.. اختفت الشمس الغزالة، وعمّ ظلام اقتحمه نور خافت، مصابيح تومض وتنطفيء بلمح البصر، الثواني تعجز عن اللحاق بها، ودبيب كخربشة النمل يستولى على رجليه ويصعد نحو جسده فيستقر

فوق عنقه وصدره، وكأن البروفيسور الجراح المختص في جراحة الأنسجة قرأ –من خلال تجربة سابقة - أفكار صديقه، فاقترح عليه أن يبقى في الغرفة ويعود إلى النوم، أما هو فقد خرج كي يرقد في الغرفة المجاورة، وهو مصمم على ألا ينام في عتمة تامة، أشعل شمعة واسترخى على الفراش، كان فكره يستعرض الحيوانات التي أخضعها لتجاربه السابقة، الفئران قصيرة العمر تحمي نفسها بالأنفاق، والقطط ذات عمر أقل من الإنسان، الأرانب الحشرات، الخيول تنعم بظلام كاف وهي تأوي إلى اسطبلاتها، أما نحن البشر فالقضية في هذه التجربة تتعلق بأجيال كاملة وبعمر الإنسان نفسه، تعاملنا مع النور يمكن أن تكشفه أحلامنا وأدواتنا الدقيقة، وحين يعود إلى المشفى، سوف يواصل تجاربه على النائمين في عتمة شديدة ليقع على عين اليقين، كانت صور الضوء تلوح أمامه بأشكالها المختلفة، لا تنظر مباشرة إلى الشمس في حال كسوف إذ يمكن أن نصاب بالعمى، صانع اللحام يضع قناعًا على عينيه ليتقي الضوء الساطع القريب، يغشينا الضوء البعيد البعيد من الشمس الشاحبة عند الكسوف، ونور اللحام القريب، وننشرح لضوء القمر حتى إن كثيرًا من النساء الحوامل يستلقين في الليالي الصافية تحت نوره ليلدن أطفالاً أصحاء من ذوي الجمال، وكان القمر نفسه سميره في ليالي الصيف، وما مر به من أحداث يمكن أن يكون أدلة تصله إلى استنتاج ناجح، مثل ضابط الشرطة الذي يجمع أصغر الأدلة ليهتدي بها إلى خيط الجريمة، مع فرق شاسع بين دليل يوصل إلى شبح وآخر يتتبع كابوسًا أو روحًا شريرة، تلك الدقائق وهو يرقد في غرفة والديه

وعلى فراشهما، ويجمع الأدلة، أدرك أن الأمر لم يكن مصادفة بل هو أشبه بالمرض، إنها الحقيقة التي ربطت بين اكتشاف أديسون ووفاته وبيت والديه الريفي البعيد عن مركز القرية، وليالي الصيف الرائعة التي كانت تسمح فيها والدته للقمر والنجوم، أن تُداعب جبينه من النافذة، ثم هبوط الظلام الكثيف وقت الخريف والشتاء، ذلك الوقت من ثلاثينيات القرن الماضي، فتح عينيه في هذه القرية ذات البيوت المتناثرة، لم تكن هناك شوارع تحتشد فيها أعمدة الكهرباء، كانت الإنارة تُغطي البيوت فقط فيرقد سكانها عند الليل وسط ظلام دامس، وها هي مدن العالم التي أصبحت منيرة بفضل اكتشاف المصباح تأبى في العام ١٩٣١ أن تعيش في ظلام دامس بضع دقائق، حدادًا على أديسون المكتشف الكبير، على النقيض مما تفعله بيوت قريته إلى الآن، فأية مفارقة عجيبة جعلته يتساوى مع مرضاه بل جعلت الجميع يتساوون في المرض ذاته من دون أن يدركوا ذلك.

كان ضوء الشمعة الخافت يوحي إليه ببعض الطمأنينة، وهو ينظر إليها يطمئن، وكانت والدته حذرته من أن ينظر إلى الشمس يوم لاح عليها كسوف بعض الوقت، كانت تخاف عليه أن يفقد بصره، وفي حلمه المتواصل يظل يرى الشمس مباشرة من غير نظارات يكاد يلمسها، ويبدو أن ذكرياته أسلمته إلى نوم عميق قطعه عليه زعيق زميله الدكتور "ن" في الغرفة المجاورة وهو يصرخ إني أكرهك، أكرهكم، فهرول إليه وهو يهتف في أعماقه: لقد وجدتها عثرت عليها. وجدتها بالتأكيد!

حين ضغط على الزر الكهربائي وغمر الغرفة ضوء المصباح، وجد زميله الهائج يعود إلى وضعه السابق بعد أن رآه يقف منه موقف المهاجم وهو يهرش جسده أشبه بمدمن عاودته النوبة، ثم وهو يجلس على حافة السرير -بعد انبثاق الضوء - هادئا ودودًا أليفا كأن شلالاً من سائل غير مرئيّ مرّ على جسده وتوغل في أعماقه، فأعاده إلى طبيعته الأولى، فأعاد البروفيسور سؤاله السابق:

- هل سبق الحلم اللذيذ الكابوس المألوف؟

فتمهل برهة وأجاب:

- هو ذاته مع بعض التحوير!

في هذه اللحظة تراقصت أمام ذاكرته صورة القرص وانبسطت الأرض بشكل حقل وبقي القرص محافظا على حجمه، وكانت الشمس تنحدر إلى المغيب في حين عم الظلام وانبثقت مصابيح أنارت وانطفأت قبل أن يهجم الكابوس، فعقب البروفيسور وهو يبتسم:

- الحلم لم يتغيّر تمامًا لأن الكابوس اقتحمه عليك في الليلة نفسها، ولو أنك نمت في الليلة التالية في المكان ذاته ضمن الظروف نفسها لسبق الكابوس حلم يستمد مواده من معايشتك لأحداث عشتها في اليوم ذاته.

فتمعن في وجه البروفيسور كالمستغرب متسائلاً:

- غريب أية تسمية تُطلقها على هذا الكابوس؟

هز البروفيسور كتفيه قائلاً:

- سمه كابوس العتمة أو الشبح أو بالتأكيد الضوء!

فرد وهو يبتسم ابتسامة العاجز:

- يسعدني أني اشتركت معك في كل التجارب، أما هذه فلما أزل عاجزًا عن فهمها بالرغم من أني خضعت لها مرتين.

- أنا متأكد باليقين القاطع أنها حالة إدمان من نوع آخر.

- لولا أني وقعت تحت هذا التأثير لشككت، بل وأقول لك لكي لا يظل ضميري يؤنبني إني في البداية ظننته إرهاقًا، وربما بالغت فظننته خرفًا أو بعض الهوس.

- بإمكان أي أحد أن يشك، مثلما شككتُ في مرضاي، وفكرتُ أن أحيلهم إليك، وللمرة الأولى أصارحك أن هناك أكثر من مريض زارني في المشفى لكني حين ربطت بين بيتنا الريفي وشوارع المدينة حيث نعمل ومن قبل مدن ولاية نيوجرسي هناك حيث توفي أديسون... المدن التي رفضت أن تعيش في ظلام دامس بضع دقائق، وما اعترى مرضاي الذين ظننت أنهم مصابون بالعصاب وما اعتراني أنا ومن بعد أنت كل تلك الظواهر أكدت لي الحقيقة المرة.

- هذا يعني أن العالم يعاني الآن من ثقل موجة كهرومغناضونية قد تودي به إلى الجنون.

- أبدًا لا بل لها علاقة بالكهرباء،"تأمل لحظة ثم واصل في حين راح زميله يتطلع إليه باهتمام". في المدينة يا عزيزي تنتشر المصابيح على الأرصفة، وفي كل مكان، وحين نأوي إلى النوم في شقتنا يبقى بعض من ذلك الضوء الصناعي يتسلل إلينا عبر النوافذ والستائر، أما في المنزل فالضوء يرافقنا إلى ساعة متأخرة وذلك يعني أن خلايانا

والأنسجة تشحن نفسها من خـــلال الضـــوء الخافــت، فـــلا نشـــعر بالاضطراب"وواصل وهو يزدرد ريقه"، بحساب الأجيال نحن نمثـــل الجيل الثالث بعد اختراع الإنـــارة الصـــناعية، أمـــا الجيـــل الرابـــع والخامس..

هنا بدأت الفكرة تتضح للدكتور "ن" فقاطع أستاذه:

- تقصد أن خلايانا التي اعتادت في ظروف طبيعية منذ الأزل علـــى نسب محددة من الظلام والضوء بدأت بمرور الزمن تعتاد على العيش في الضوء الصناعي تمامًا فتغيرت طبيعة الخلايا والأنسجة في حالة تشبه الإدمان.

- بالتأكيد، وأظنك الآن فهمت لِمَ لَمْ نصب بالهيجان ونحن ننام فـــي المدينة، لأن الضوء المتسلل إلينا من النوافذ والستائر كاف لمغذطـــة أنسجتنا وخلايانا، ولم يكن بإمكاني أن أجري التجربة على الفئـــران كونها تعيش على الأرض وتأوي إلى الجحور والأنفاق أمـــا خلايانـــا نحن فقد خضعت لتراكم ضوئي زادت نسبته عبر قرن من الزمن عن العتمة التي يفترض أن نعايشها، وهي الظواهر ذاتهـــا التـــي بـــدأت تعتري مرضى عيادتي القرويين الذين يعانون من العصـــاب حالمـــا يرقدون في ظلام دامس، ولو كنا في مدن الشمال حيث الطول المفرط لليل والنهار خلال فصلي الشتاء والصيف لقلنا إنها الكآبة.

- إذًا هل تُسمي اكتشافك الجديد إدمان الضوء؟

فنفث البروفيسور الهواء عميقًا وأكد:

- المشكلة ليست في التسمية فقد تكون التسمية صحيحة إلى حد ما.

لم يكتف بما حدث في المنزل الريفيّ، ولكي يزيل الشكوك تمامًا فقـد طبّق تجربته على مرضاه في المشفى، في البدء اختار اثنــين، الأول شاب في الثلاثين حلم كل مرة بكابوس يجثم على صدره، حتى ظــن أنها بوادر لمرض الربو ثم تكرر الحلم، أما التجربــة الأخــرى فقـد تطوّعت لها امرأة في الخامسة والخمسين مــن العمــر، اســترخى المريضان في غرفتين منفصلتين وربط رأس كل منهما بأسلاك تنتهي عند جهاز رسم الأحلام أي أي ج، ظل البروفيسور طوال الليل يُراقب حال المريضين، وحين اجتاز كل منهما مراحل النوم الأولــى ودخــلا المرحلة الرابعة راحت لوحة الرسم تُشير إلى حركة العينين السريعة مر كل شيء بسلام.. المريض الشاب لم يقفز من فراشه.. لم يجــثم أي ثقل على صدره، لا شبح ولا اختناق، والمريضة العجــوز نامــت نومًا هانئا خاليًا من أي كابوس.

خضع المريضان خلال ثلاث ليال للتجربة في ضوء خافت، بصــيص من نور يعادل ضوء شمعة وربما أقل، ولكي يتأكد البروفيسور مــن صدق حدسه فإنه رش خلال فترة النوم العميق على وجــه مريضــه الشاب بعض الرذاذ وقرب من مريضته نوطة موسيقية خافتة وعندما استفاقا وسألهما عما حلما به أجاب الشاب أنه حلم بالسماء تمطــر مرة ومرة السقف يخر ماء، وأجابت المريضة أنها رأت نفسها فــي استعراض عسكري، وأخرى كانت تجلس عند ساقية فتستمتع بخرير المياه.

كانت هناك فكرة واحدة تتبلور في ذهن البروفيسور "ك"، فتنصب على الظلام والنور بصفتهما الحاضنة الأولى للكوابيس الثقيلة، لذلك وجد أن الكوابيس عادت تجثم على صدور مرضاه بعد أن أعاد التجربة ذاتها عليهم في جو معتم لا بصيص للنور فيه كما هو الحال في البيت الريفي فكانت النتائج مثلما توقعها تماماً..

كابوس.. اختناق..

عدوانية تجبر النائم على العنف

هستيرية..

اقتنع تماماً أن خلايا جديدة تولدت لنا مع مرور الزمن، وامتزجت بخلايانا الأصلية وبفعل اعتيادنا على الضوء فإن تلك الخلايا الجديدة الممتزجة بأنسجتنا الأصلية أصبحت مثل بطاريات الشحن، مثل الأسماك التي تعيش في بحيرات داخل الكهوف المظلمة لا تحتاج إلى العيون أما نحن فلن نستطيع العيش من دون نور قط؛ لأن أنسجة الشحن في أجسامنا تضغط على خلايانا الأصلية، كان عليه أن يعيش التجربة التي أجراها على مرضاه، فطلب من زميله وتلميذه السابق الدكتور "ن" أن يظل يقظاً ويراقب لوحة الحلم، سواء خلال نومه في العتمة ومهاجمة الكوابيس له، أم عند رقاده في النور وهو ينعم بنوم هادىء بعيد عن أي كابوس..

وفي طريق العودة عصر اليوم التالي، استغرقهما صمت طويل.. كان كل منهما يشحذ ذهنه لعله يهتدي إلى اكتشاف جديد، يعالج به خلل الظلام والنور، راح الدكتور " ن " يبحث في إمكان الاستفادة من

طريقة تتراوح بين مجموعة الحبوب المهدئة والمسكّنة، بصفتها علاجًا مؤقتًا يمكن أن يُلغى فيما بعد حين نجد العلاج البديل، وكان ذهن البروفيسور "ك" يتراوح بين اليقظة والنوم، كم يبدو غريبًا هذا العالم في كيانه المتناقض، فنحن إذًا نحتاج إلى حمامات ضوء نغسل فيها نفوسنا من الكآبة أو نجعل أجسادنا أكثر سمرة، في الوقت نفسه تتآكل في خلايانا بقع سوداء مظلمة تمنع عنا العصاب! معادلة صعبة وعلاجها يبدو أكثر صعوبة في الوقت الحاضر!

خلال الدقائق التالية أدرك، وهو خلف المقود، أننا في حال اليقظة لا ندلف في ظلام تام، بل لا نفكر في ذلك قط وإن حدث وأرغمنا أمر ما على معايشة العتمة التامة لدقائق فإننا نملك الوعي الواضح للتخلص منها قبل أن تلوح علينا بوادر العصاب، أما عند النوم في ظلام دامس فإنّ خلايا الجسد والأنسجة تعتمد على مخزونها الكهرومغناطيسي فتستهلكه، حتى إذا وصلت إلى نقطة التلاشي بدأت تتحفز فينا بأشكال مختلفة، منها العصاب والعدوانية وهرش الجسد، نحن مرضى وأكثرنا لا يحس بمرضه لأنه يعيش جانبًا واحدًا من الحياة هو وجهها المنير فقط، ومثلما هتف الليلة الماضية وجدتها بصوت واضح، يجد نفسه يهتف الآن بصوت خافت العبارة ذاتها، ويلتفت إلى تلميذه وزميله ملاطفًا:

- قد احترف في المستقبل مهنة أبي!

فرد الآخر ممازحًا:

- سأترك مهنة الطب واشتغل نادلاً معك!

كان جادًا في حديثه، على الرغم من أن الدكتور "ن" عـدّها مزحـة خفيفة قطعت عليه بعض تأملاته، تلك اللحظة تذكر مهنة والده الذي افتتح مطعمًا كبيرًا في المدينة، بعد أن انتقلوا إليها قبل زمن طويـل، ماذا لو أعاد التجربة بصيغة أخرى، إنه لا يستنسـخها كاملـة بـل يضيف إليها عامل الظلام فيجذب المرضى للعلاج وهم يظنون أنفسهم في نزهة فريدة، مطعم جديد بأجوائه التي يخيم عليها ظلام دامس، لا مصابيح ولا شموع، العاملات والعاملون يُقدمون للزبائن طعامًا فـي الظلام والزبائن يأكلون وسط العتمة، ربما الطباخ نفسه يطبخ وسـط الظلام، يمكن للزبائن أن يجلسوا ويتحدثوا ليتناولوا ما يرغبون مـن دون ضوء، همَّ أن يفصح بأفكاره لزميله وهواجسه لكنه سرعان ما استثنى؛ لأن فكرته لم تختمر بعد ثم همس لنفسه:

في البدء سأعالج العالم في إعادته للظلام الذي فقده من جديـد دون أن يشعر بذلك!، والتفت إلى زميله مرة أخرى:

- هل يمكن أن نعالج المرضى من غير أن يحسوا أننا فعلاً نعالجهم!

- من الناحية النظرية يمكن، أما من حيث المفهوم العملي لم يحدث ذلك إلى الآن.

ابتسم وهو يلف المقود مع منعطف الطريق، وكانت السيارة تقتـرب من المدينة التي استعدت شأنها كل مساء مع ميلان الشـمس نحـو الغروب، لاستقبال ليلة جديدة مفعمة بمصابيح ساطعة النور!

نشرت في مجلة العربي الكويتية

العـدد ٥٩٣ أبريـل ٢٠٠٨

قصص قصيرة جداً
من الخيال العلمي

البوم

يحكي البوم في مدن الشمال لغة مليئة بالتفاؤل، فيعده سكان مدن الضباب والثلوج مثلاً أعلى للخير والحكمة، فيصنعون له التماثيل والرسوم، ويضعون صوره على الواجهات، وتتبناه في أغلب المنافسات دور الإعلان.

والبوم في مدن الجنوب حيث الشمس الساطعة والنور، يتكلم لغة النحس والتشاؤم، فجعله أهل تلك المدن مثلاً أعلى للبؤس والخرائب حيث امتلأت كتاباتهم وأشعارهم بالشكوى منه ومن لغته المشؤومة، ولم يكتفوا بهذا القدر عنه، بل جعلوه يسكن الخرائب والقبور.

في الآونة الأخيرة استطاع أحد العلماء أن يبتكر جهازًا يفهم ويترجم لغة الحيوان والطير، انصرف اهتمام ذلك العالم إلى ازدواجية البوم الإيجابية والسلبية بين الشمال والجنوب، لقد جرب على نموذجين شمالي وجنوبي لعبة اللغة، فوجد بمساعدة الأجهزة العلمية الأخرى استعدادًا عند الطائر في أن يتعلم لغات الطير الأخرى، وقابلية للتقليد تشبه قابلية الببغاء، عندها فكّر أن ينقل بوم الشمال إلى الجنوب، وبوم الجنوب إلى الشمال!

كان العالم ينتظر النتيجة بفارغ الصبر.. ومــرت الأيــام والشــهور والسنوات ولم يحدث أي شيء، كان البوم على اســتعداد فــي الآن نفسه أن يتعلم لغة فصيلة أخرى، لكنه لم يفهم لغة فصــيلته هــو، وهكذا ظل بوم الشمال يتحدث بالحكمة والتفــاؤل، فيســكن البيــوت وواجهات الإعلان، وبقي بوم الجنوب يتكلم بلغة النحس والتشــاؤم، ويسكن الخرائب والمقابر!

دقائق الصفاء

تجتاح العالم كل سنة مرة واحدة دقائق هادئة ذات سـمات خارقـة، بضع دقائق فقط ينسى الناس خلالها جميـع خلافـاتهم ومشـاكلهم وصراعاتهم وحقدهم وكرههم، فلا حروب ولا خصام خلال تلك الدقائق ولا مشاكل ولا حوادث سيارات مرعبة، أو طائرات، ولا كـوارث أو زلازلال وبراكين! الكرة الارضية حمامة سلام وادعة! والناس آمنون.

يثبتُ أحد الأجهزة العلمية الحديثة أن تلك الدقائق ضرورة يفرضـها على كوكبنا نظام المجموعة الشمسية، الذي يخلو من الحياة، ما عدا الأرض، ليعيد توازنه المفقود طول العام الأرضـي، بـين الطبيعـة والإنسان، والإنسان الفرد نفسه ونوعه البشري، الذي أنهكته الحروب والمشاكل الكثيرة!

ويبدو أن دقائق الأمن والسلام التي تغزو الأرض مرة كل سنة، تمر من دون أن نشعر بها وندرك نتائجها المريعة، يزيدها إبهامًا لنا أنها تغْزُ بصورة غير منتظمة، فربما تحدث هذه السنة لـيلاً، التاسـعة والنصف خلال الشتاء، وتعود السنة القادمة في الصيف عند الفجر أو الظهر فيطغى عندئذ أمن نعيشه ولا نشعر به ولو بضع دقائق!

اختراع

سأل سيادته أحد علماء البلد أن يصنع جهازًا من أجهزة الإنذار المبكر، يختص بكشف المؤامرات التي كثُرتْ من حوله، وحالما صنع العالم الجهاز انصرف ذهنه إلى مصير مأساوي لقيه سنمار البنّاء، الذي بنى للملك بيتًا غريبًا يدور مع الشمس، فسخّر جهازه الجديد للإطاحة بسيادته، ولم يجد أحدًا أفضل من شخصه للجلوس على العرش، فارتقاه لينعم بلذة العلم والسلطة معًا في كفة واحدةً!

عندئذ كان العلماء الآخرون يتربصون، فينهمك كل منهم بصنع جهاز جديد ذي مواصفات خاصة، لعله يستفيد منه في أن يرتقي لرفع كرسي في البلد!

القــرد

بعد عشر سنوات من البحث والدراسة والعيش في الغابة مع قــرود من فصيلة البون Boon، وبعد تربية أحد عشر قــردًا فــي البيــت، ومراقبتها مراقبة تامة ليل نهار وفهم سلوكها، أدركت الباحثة الكندية أن هناك تطابقًا في الحامض النووي DNL بنسبة خمسة وثمــانين بالمائة بين هذه القرود والإنسان، فحاولت الباحثة المــذكورة إلغــاء الفرق الضئيل بإضافة مُركّب مختبري يُعنى بسد الثغرة المتبقية بــين الاثنين وهي نسبة الخمسة عشر بالمائة!

كان هناك مخلوق بشكل قرد وعقلية إنسان، مخلوق يفكر، ويناقش، ويستحسن أو يستهجن مع احتفاظه بقدرة أسلافه على النط والقفــز إلى أعلى مكان! عاش معها بضعة أيام في وئام، وتصرف تصــرُّف إنسان عاقل حكيم مهذب، ربما غفل أن يسألها لِمَ هــو عــار وهـــي ترتدي على الأقل حدًا أدنى من ثياب تستر معظم جسدها..

وفي إحدى اللحظات، فوجئت الباحثة بالقرد الإنسان يحطم كل المرايا من حوله، ويهشم أثاث البيت مندفعًا نحوها وفي عينيه ملامح انتقام وهو يصرخ:

- كفى أنا أبشع مخلوق على الأرض هل هناك من هو أبشع مني!

تداخل الحواس

إحدى مدن الألعاب الإلكترونية استطاعت أن تجعل الحـــواس تتبـــادل مواقعها، العين يمكن أن تستاف الروائح، اليد تقدر على التذوق، أما الأنف فيرى ويبصر، والأذن تشم، كل شيء يصبح على مـــا يـــرام، إنسان كامل بحواس حقيقية تؤدي وظائفها بصورة جديدة!

حين دخلتُ الآلةَ اكتشفت أني إنسان كامل، ناطق عاقل، سوى أني لم أعرف شخصي الأول الذي كان يستاف بأنف ويذوق بلســـان ويـــرى بعينين ويسمع بأذنين، كنتُ حقًا غريبًا عن جسدي القديم!

سرّيٌ للغاية

نحن مجموعة من الباحثين اكتشفنا بعد عشرات التجارب غير القابلة للشك، أن أمنا حواء لم تُخرج أبانا آدم من الجنة بالتفاحة قبل حفنــــة ملايين من السنين، فالتجارب أثبتت أن التفاح لم يكن في الجنة، وأنه فاكهة أرضية لم تُستنسخ من أي مكان آخر في الكون، ذلك يعني أن حواء لابد أن تكون قد أخرجت آدم من الجنة عن طريق فاكهة أخرى كانت موجودة هناك، ولعلها انقرضت أو لم تستنسخ، وربما استطاعت أن تُخرجه بفاكهة معنوية يمكن أن نسميها فاكهة الإقناع، ونحن هنا نُسجل هذه الحقيقة لجيل العلماء القادم بعدنا، لعله يستطيع عبر مـــا يتوصل إليه من وسائل علمية أكثر من التي عندنا، أن يصل إلى علة الكون الأولى، ومعرفة سبب الحياة، بالتالي إدراك الحامض الكـــوني، الذي نُعد سكان كوكب الأرض إحدى حلقاته المهمة!

الفهرس


شمس
ش
للنشر والتوزيع
(٠٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (٠٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠١
www.shams-group.net